العشرة
المبشرون بالجنة

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

مكتبة الإيمان بالمنصورة - بجوار جامعة الأزهر

العشرة المبشرون بالجنة

* أبو بكر الصِّديق.
* عُمَر بن الخطَّاب.
* عثمان بن عفّان.
* عَلى بن أبى طالب.
* طلحة بن عُبَيْد الله.
* الزّبيْر بن العَوَّام.
* سعد بن أبى وَقّاص.
* أبو عُبَيْدَة بن الجرّاح.
* عبد الرحّمن بن عَوْف.
* سَعيد بن زَيْد بن عَمْرو.

تأليف

مُحَمَّد متولّى الصبَّاغ

مكتبة الإيمان

المنصورة - أمام جامعة الأزهر

ت : ٣٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

نمـــاذج طيبة

والعشرة المبشرون بالجنة نماذج ومثل طيبة، فيهم أسمى الصفات وأعظم السجايا، ولهم مواقف عظيمة فى البطولة والدفاع عن الإسلام والتعرف على سجاياهم وعلى صور حياتهم يقدم للقارىء صورة بهيجة لرجال صدر الإسلام وينبغى أن تدفعنا هذه الصورة إلى التخلق بأخلاقهم والسير تبعاً لسيرتهم لننال خير الدنيا والآخرة.

وقد اعتمدت فى الحديث عنهم على أدق المصادر والمراجع لتكون الصورة التى أرسمها مطابقة للحقيقة أو شديدة القرب منها، واتخذت فى التعبير والأداء أبسط الأساليب.

وأدعو الله أن ننتفع بهذا الجهد، وأن نتخذ من هؤلاء الأعلام الأجلاء قدوة لنا فى سلوكنا وأسلوب حياتنا.. ومنه التوفيق. ونبدأ الحديث من أول العشرة المبشرين بالجنة وهو: أبو بكر الصديق.

المؤلف

مُحَمَّد متولَىّ الصبَّاغ

*****

[١]

أبو بكر الصديق «الصديق»

تعريف به:

هو عبد الله بن أبى قحافة وأمه أم الخير سلمى بنت صخر وهى إبنة عم أبيه، وأمه وأبوه من بنى تيم، وهم قوم اشتهروا بدماثة الخلق، والأدب الجم.

وقد ولد أبو بكر بعد الرسول بعامين تقريباً، وكان منذ نشأته تبدو عليه محايل الذكاء كما كان حسن الخلق طيب العشرة، ولما شب أصبح محبوباً فى قومه مقدماً بين أهله وعشيرته.

كان اسمه فى الجاهلية«عبد الكعبة» وكان يأنف أن يعبد الأصنام، ويسخر من الذين يعبدونها ويسفه عقولهم ويقول: أناس يعقلون ويسمعون ويبصرون ويعبدون ما لا يعقل ولا يسمع ولا يبصر إنه لشىء عجيب.

ويقول أبو بكر: أخذنى أبى مرة إلى الكعبة حيث حشدت بها مجموعة من الأصنام وقال لى: يابنى.. هذه آلهتك فاعبدها وتقرب إليها وتركنى وذهب فدنوت من الصنم وتحسسته فوجدت قطعة من الحجر صنعت على غير هدى وسألته: هل تستطيع أن تطعمنى إذا جعت؟ أو تكسونى إذا كنت عارياً؟ وطبيعى أن الصنم لن يعطنى جواب فهزته فاهتز ودفعته فانكب على وجهه وانفلتت منى ضحكة على هذا الإله الذى لا يستطيع أن يحمى نفسه، ولكنى أسرعت مهرولاً إلى بيتى حتى لا يرانى عبدة الأصنام فينزلوا بى ألوان الضر.

ولم يكن أبو بكر يشرب الخمر فى الجاهلية، وكان يقول: اننى أصون عرضى وأحافظ على مروءتى فإن من يشرب الخمر يضيع عقله وتذهب مروءته.

وكان فى الجاهلية يشتغل فى تجارة الثياب وقد راجت تجارته ونمت ثروته لأنه كان حريصاً على الأمانة والاستقامة، فوثق به الناس وأكثروا من التعامل معه.

*****

«صلته بالرسول»

وقد تعرف أبو بكر على محمد بن عبد الله قبل البعثة بفترة يختلف المؤرخون فى تحديد طولها، وقامت بينهما علاقة حب وتعاون ووثق كل منهما فى صاحبه ولما انقطع الرسول للعبادة فى غار حراء، وكان أبو بكر شديد الحرص على التعرف على أخباره وأحواله فلما جاء الوحى للرسولﷺ وبدأت رسالة الإسلام التقى أبو بكر بالرسول ودار بينهما الحوار التالى:

أبو بكر: لقد افتقدتك يامحمد طويلا فكيف حالك؟

الرسول: وهل تصدقنى يا أبا بكر إذا عرفتك بحالى؟

أبو بكر: ومن سواك أصدق إذا لم أصدقك؟

الرسول: إن الله جعلنى بشيرا ونذيراً وجعلنى دعوة إبراهيم وأرسلنى إلى الناس جميعا ليعبدوا الله ويتركوا عبادة الأصنام.

أبو بكر: والله ماجربت عليك كذباً قط وإن عبادة الأصنام لجرم ينبغى القضاء عليه، وإنك لخليق بالرسالة لأمانتك وصلتك الرحم، مد يدك لأبايعك.

وكان أبو بكر بذلك أول المسلمين من الرجال ومن أجل هذا أسماه الرسول **«أبا بكر»** بدلاً من« **عبد الكعبة**» لأنه بكر بدخول الإسلام كما لقبه **«الصديق»** لأنه بادر بتصديق الرسول فى مواقف كثيرة، وبخاصة فى مطلع الإسلام وفى حادثة الإسراء والمعراج.

ومن أجل سرعة تصديقه للرسول يصفه الرسول بقوله: **«مادعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة وتردد إلا أبا بكر، فإنه أسرع بتصديقى وتأييدى وما لأحد عندنا يد إلا كافأناه عليها ماعدا أبى بكر كان له عندنا يداً يكافئه الله عليه وما نفعنى مال أحد مثلما نفعنى مال أبى بكر ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلى»**.

وروى عن عمرو بن العاص أنه قال: سألت رسول الله ﷺ أى الناس أحب

إليك؟ قال: «عائشة»قلت: ومن الرجال؟ قال: «أبوها»[1].

حمل أبو بكر عبء الدعوة للإسلام فى مطلع البعثة وكان موثوقاً به، كما كان موضع الإجلال والتقدير من رجالات عصره، ومن هنا فإنه عندما حمل عبء الدعوة نجح فى ذلك نجاحاً كبيراً فدخل الإسلام على يديه مجموعة السابقين الأولين، والذين نشروا دعوة الإسلام ودافعوا عنها بالكلمة والسيف ومن هؤلاء عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف والأرقم بن أبى الأرقم وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم من السابقين الأولين.

وفى مطلع الإسلام دخل مجموعة من الضعفاء والعبيد دين الله ولكن العبيد تعرضوا لمحنة شاقة فقد كان سادتهم يعذبونهم بألوان من العذاب حتى يعودوا إلى عبادة الأصنام ولكن هؤلاء تمسكوا بدينهم ومن هنا زاد عدوان السادة عليهم وقد تقدم أبو بكر لانقاذ هؤلاء الضعفاء فكان يشتريهم من ساداتهم ويعتقهم ومن هؤلاء بلال وعامر بن فهيرة زنيرة التى كانت جارية لعمر بن الخطاب قبل إسلامه وغيرهم .

ويروى أن أمية بن خلف الجمحى الذى كان سيداً ومالكاً لبلال بن رباح تعب من تعذيبه لبلال ويئس منه فلما ساومه أبو بكر: فى شرائه نظير خمسة أوقيات من الذهب قال أمية: إنى أبيعه ولو بأوقية واحدة فقال أبو بكر وأنا اشتريته ولو بمائة أوقية.

وقد انتهز بعض المشركين هذه الفرصة، فكانوا يعتدون على عبيدهم ويعذبونهم ليس حرصاً على الوثنية ولكن لكى يتقدم أبو بكر لشرائهم فكانوا يبالغون فى المساومة حتى يحصلوا من أبى بكر على أغلى ثمن.

ويروى أن أبا قحافة والد أبى بكر قال لابنه فى هذا الصدد: ليتك تعتق رجالاً فيهم قوة وصلابة ليمنعوك وليقوموا دونك، ولكن أبا بكر أجابه بقوله: يا أبت إنى أريد ما عند الله. ويروى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن الرسول ﷺ حث المسلمين مرة على أن يتصدق القادرون منهم بما يستطيعون قال عمر: فانتهزتها فرصة لأسبق أبا بكر مرة فى عمل خير، وجئت إلى الرسول بنصف مالى وقدمته

(١) متفق عليه.

إليه، فسألنى الرسول: ماذا أبقيت لأهلك؟ فأجبت: أبقيت لهم مثل هذا القدر.

وبعد لحظة جاء أبو بكر وقدم للرسول مالاً كثيراً فسأله الرسول: ماذا أبقيت لأهلك؟ قال أبو بكر: أبقيت لهم عون الله وحب رسوله.

ويقول عمر: قلت لنفسى حينذاك: إنى لن أسبق أبا بكر أبداً.

هجرته مع الرسول:

عندما اشتد أذى المشركين للمسلمين سمح الرسول للمسلمين بالهجرة إلى يثرب التى كان الإسلام قد انتشر بها وبقى الرسول فى مكة ينتظر أمر الله بالهجرة وتآمرت قريش للقضاء على محمد قبل أن يلحق بأصحابه وحينئذ جاء الإذن للرسول بالهجرة وأسرع الرسول إلى أبى بكر يخبره بذلك، فقال له أبو بكر الصحبة يارسول الله فرحب الرسول بصحبته وقد جهز أبو بكر للهجرة كل ماله، كما جند لها أهل بيته وخاطر بنفسه فصحب الرسول مع علمه بأن قريشاً ستتبعهما وستحاول القضاء عليهما.

وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع ماتقوله قريش عنهما نهاراً ثم يأتيهما ليلاً بغار ثور حيث يختفيان لينقل لهما أخبار قريش.

وأمر إلى مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه فى سفح جبل ثور، ثم يذهب باللبن فى المساء إلى الغار ليقدمه للرسول ورفيقه.

وحمل أبو بكر أكثر ماله معه فى هذه الرحلة ليكون عوناً له وللرسول وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما بالطعام كل مساء وقد شقت أسماء نطاقها فجعلته قمسين تستعمل أحدهما نطاقاً تشد به وسطها وتخفى الطعام فى الآخر، ولذلك سميت« ذات النطاقين».

ويروى أن أبا بكر كان فى هذه الرحلة يسبق الرسول أحياناً ويلحقه أحياناً فلما سأله الرسول عن ذلك قال: أتذكر التربص فأسبقك وأتذكر اللحاق فأمشى خلفك فأبو بكر يريد أن يفتدى الرسول بنفسه.

وقصة اختفاء أبى بكر مع الرسول فى الغار أوردتها الآية الكريمة**﴿ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾** [التوبة: ٤٠].

ومن الحق أن نقرر أن طول صحبة أبى بكر للرسول مع إخلاصه وصفاء نفسه جعلته أكثر المسلمين انتفاعاً بروح الإسلام ومقاصده.

لمحة من صفاته:

إن الدارس لحياة أبى بكر قبل الإسلام وبعده، يجد فيه مجموعة من أسمى الصفات وأعظم السجايا، وقد زاده الإسلام سمواً وسماحة وصفاء، فلما آلت له الخلافة، أبرزت فيه قمة الخلق وروعة الإنسان، وسنورد بعض النماذج من صفاته عبر حياته كلها.

التواضع:

كان أبو بكر مطبوعًا على التواضع ولين الجانب فى غير ضعف وكان إذا مدحه مادح قال: اللهم أنت أعلم بى من كل إنسان وكان يكره الخيلاء سواء فى نفسه أو فى أقرب الناس إليه ولقد رأى مرة ابنته عائشة وهى تحس بنوع من الفخر والخيلاء فقال لها: إن الله لا ينظر إليك الآن لأن العبد إذا دخلته الكبرياء أعرض عنه ربه فخجلت عائشة مما فعلته واستغفرت ربها وعادت بسرعة إلى التواضع فقال لها: لعل ذلك يكفر عنك ماوقعت فيه.

ولكن تواضع أبى بكر ولين جانبه كانا فى حدود الشريعة والالتزامات الإسلامية ولهذا كان أبو بكر ينقلب قوة وحماسة وجرأة عندما تستدعى الأحداث ذلك، فيروى أن أبا بكر فى خلافته أخذ على أبى سفيان سيد بنى أمية بعض الأخطاء، فاحتد أبو بكر على أبى سفيان، واضطر أبو سفيان إلى أن يتجه للين والضعف، لينجو من قوة الخليفة وبطشه، وقد سمع أبو قحافة والد أبى بكر هذا النقاش الذى يدور بين الاثنين، والذى كان ابنه فيه مستعلياً قوياً، وخصمه مستكيناً ضعيفاً، فسأل أبو قحافة: على من يصيح ابنى؟ فقالوا له: إنه يصيح على أبى سفيان، فدهش أبو قحافة وقال: أعلى أبى سفيان تصيح يا أبا بكر وترفع صوتك؟ لقد عدوت طورك وجزت قدرتك(أى زدت عن حدك) ولما علم أبو بكر بذلك قال لأبيه: أيا أبت إن الله رفع بالإسلام صاحب الحق وأذل به المعتدين.

وفى غزوة بدر كان أبو بكر علماً بين المسلمين، وكان ابنه عبد الرحمن مع المشركين وقد برز عبد الرحمن من بين الصفوف وصاح: من يبارز؟ فخرج له أبوه

لمصارعته، ولكن الابن تراجع ولم يدخل المبارزة مع أبيه ولما دخل عبد الرحمن الإسلام قال لأبيه: لقد تعرضت لى يوم بدر، وكنت استطيع أن أقتلك ولكنني لم أفعل فقال له أبو بكر: ولكننى لو استطعت أن أقتلك فى سبيل الله لقتلتك.

شجاعته:

يثبت التاريخ لأبى بكر مواقف كثيرة، كان فيها هذا الرجل السمح المتواضع شجاعاً كأعظم ماتكون الشجاعة فيروى أنه كان يطالب بإعلان الإسلام، عندما كان المسلمون قلة قليلة ولم يكن الأمر بإعلانه قد نزلت به آيات القرآن الكريم.

وكان يجلس على باب داره يقرأ القرآن بصوت رائع رقيق ينجذب له الناس، فخاف رجال قريش عاقبة ذلك ومشوا إلى ابن الدغنة سيد الأحابيش الذى كان أبو بكر يعيش آنذاك فى جواره وحمايته وطلبت قريش من ابن الدغنة أن يلزم أبا بكر بالعبادة والقراءة فى منزله، فكلمه ابن الدغنة آنذاك وطلب منه أن يقرأ القرآن فى بيته ولكن أبا بكر صاح فيه وقال: إنى أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله، وواجه أبو بكر بذلك عنت قريش دون خوف أو تردد.

وفى بعض الملاحم الحربية كان أبو بكر يصمد حتى ولو ولى الأبطال فقد صمد فى موقعة أحد وموقعة حنين وعندما أشيع قتل الرسول (ﷺ) صاح فى المسلمين قائلاً: ماذا تصعنون بالحياة بعده، موتوا على مامات عليه، وعندما تولى الخلافة وهبت على الإسلام والمسلمين عواصف المتنبئين والمرتدين ومانعى الزكاة ودب الضعف فى قلوب الشجعان الذين ترددوا فى مواجهة العرب جميعاً عندئذ صاح أبو بكر: والله لأقاتلن الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول اللهولأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة والله لو منعونى عناقاً كانوا يعطونها لرسول الله لقاتلتهم عليها [1] (والعناق هى الأنثى من أولاد الماعز) وصاح أبو بكر فى عمر الذى مال إلى السلامة وقال له: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب كنت أدخرك للشدائد فجئت تخذلنى، وحقق أبو بكر النصر على كل المتمردين ولذلك روى أن عمر قبل رأسه بعد النصر وقال: لولا أنت لهلكنا.

خلق المساواة:

كانت صفة المساواة بارزة فى أخلاق أبى بكر فهو مع مكانته فى الإسلام

---

(١) متفق عليه.

وقربه من الرسول ماكان ليرى لنفسه فضلاً على سواه، ويروى أنه تناقش يوماً مع «ربيعة الأسلمى» حول أمر فقال أبو بكر لربيعة كلمة فيها شىء من القسوة ولكن أبا بكر سرعان ماندم على ذلك وقال لربيعة: رد على مثلها حتى تأخذ بحقك قال ربيعة: لا أفعل فأنت صاحب رسول الله وأول من أسلم من الرجال فلا أستطيع أن أرد عليك قال أبو بكر: إن لم تفعل شكوتك للرسول قال ربيعة: لا أستطيع أن أفعل فانطلق أبو بكر للرسول وهو حزين وقص عليه قصته مع ربيعة وجاء ربيعة فقال للرسول: ما كان لى أن أرد على أبى بكر كلمة بدرت منه فقال الرسول: أحسنت ياربيعة ولكن قال: غفر الله لك يا أبا بكر فقالها ربيعة فشكره أبو بكر.

لا يأكل إلا الحلال:

ومن صفات أبو بكر أنه كان لا يأكل إلا الحلال الطيب ويروى فى ذلك أن غلاماً له قدم إليه يوماً من الأيام بعض البلح الجيد وأكله أبو بكر ثم عرف أن الغلام حصل على البلح من رجل أعرابى كان الغلام قد أوهمه أنه يقرأ المستقبل وذلك شىء ليس من الإسلام فوضه أبو بكر أصبعه فى فمه حتى تقيأ ما أكله من هذا البلح وقال سمعت رسول الله يقول: **«كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به»**.

الوفاء:

وخلق الوفاء كان من أبرز أخلاق أبى بكر، يروى أنه كان مرة مع الرسول وحولهما بعض المسلمين فغضبت قريش من ذلك ووثبوا على المسلمين يضربوهم ويؤذونهم وكان نصيب أبى بكر من هذا الإيذاء جسيماً فقد ضرب على وجهه حتى تورم وأوشك أنفه أن يختفى من شدة الورم وحمله أهله إلى بيته وهو فى غيبوبة من الألم، فلما أفاق كان أول مانطق به قوله: ماذا فعل رسول الله؟

ولكنه لم يتلق جواباً شافياً، وحاول أهله أن يقدموا له طعاماً أو شراباً ولكنه رفض أن يأكل أو أن يشرب حتى يطمئن على رسول الله، وأرسل فى طلب امرأة كانت قد دخلت الإسلام سراً وكانت تتابع أخبار الرسول فلما حضرت سألها عن الرسول فقالت إنه صحيح معافى ولكن هذا لم يقنعه وأصر على أن يحمل للرسول وهو فى مثل هذه الحالة، ولما رآه واطمأن عليه تناول بعض الطعام والشراب.

قلة الكلام:

كان أبو بكر حريصاً على قلة الكلام خوفاً من سقطة تقع منه وهو يتكلم وكان ويقول للدعاة: إذا وعظت فأوجز، فإن كثير الكلام يسىء بعضه البعض.

أبو بكر الصديق والخلافة:

توفى رسول الله ﷺ، دون أن يحدد خليفة للمسلمين، وذلك ليتولى المسلمون مسؤولية تحديد ولى الأمر من جيل إلى جيل.

ولكن الباحث فى التاريخ الإسلامى يحس أن الرسول أعطى تلميحات تشير إلى أفضلية أبى بكر، فكأنه يوصى باختياره ولو أنه لم يصرح لذلك،فيروى أنه حدث نزاع بين جماعات الأوس، وأن الرسول ذهب إليهم ليصلح بينهم، وقال لبلال: إذا حضرت الصلاة قبل أن أعود فمر أبا بكر أن يصلى بالناس.

ويروى كذلك أنه عليه السلام لما اشتد به المرض. أمر أن يصلى أبو بكر بالناس بدلاً منه وقد أحست عائشة رضى الله عنها أن أباها سيهاب هذا الموقف وسيحزنه تخلف الرسول عن إمامته للناس، فاقترحت على الرسول أن يأمر عمر بأن يؤم الناس ولكن الرسول كرر قولته: مروا أبا بكر أن يصلى بالناس وقد كرر ذلك ثلاث مرات، مما يؤكد إصرار الرسول على أن تكون إمامة الصلاة لأبى بكر وقد اعتبر ذلك تلميحاً بفضل أبى بكر ولذلك نجد عمر عندما اختلفت الآراء حول تعيين الخليفة يقول لأبى بكر: ألم يأمر النبى بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين؟ فأنت خليفته ونحن نبايعك فنبايع لدنيانا، من ارتضاه الرسول لديننا.

وفى البخارى أن امرأة أتت النبى ﷺ فى أمر فقضى لها فيه وطلب منها أن تعود إليه بعد ذلك ليتحقق مما حدث لها فقالت له: ماذا لو جئت فلم أجدك؟ فقال: إن لم تجدينى فأتى أبى بكر[1] . ولهذه المواقف رجحت كفة أبى بكر ليكون الخليفة الأول للمسلمين وبخاصة أنه كان أسن الصحابة وأسبقهم للإسلام ولصحبته للرسول فى الغار ولأن أكثر السابقين الأولين، دخلوا الإسلام على يديه. وعندما قال أبو بكر للمجتمعين بالسقيفة: هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا قال عمر: لا. . والله لا نتولى هذا الأمر عليك فأنت أفضل المهاجرين وثانى اثنين إذ هما فى الغار وخليفة الرسول فى الصلاة، فمن ذا الذى يتقدمك أو

---

(١) متفق عليه.

يتولى هذا الأمر عليك؟ وتمت بذلك البيعة لأبى بكر وعندما تمت البيعة لأبى بكر ألقى خطبة ضمنها أسلوبه فى الحكم وهى تعد دستوراً لكل حاكم منصف ونصها كالآتى: «أيها الناس: إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى، الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت فلا طاعة لى عليكم».

حكومة أبى بكر:

كوّن أبو بكر أول حكومة فى الإسلام يقيمها خليفة بعد الرسول وجعل دستورها أن تعمل لمصلحة المحكومين وليس لمصلحة الحاكم، وذلك هو خلاصة الفكر السديد وقمته ولتنفيذ ذلك اتخذ مساعديه من خيرة المسلمين وأكثرهم كفاءة وإخلاصًا فترك بيت المال لأبى عبيدة بن الجراح أمين الأمة، وتولى عمر بن الخطاب القضاء وهو قمة فى العدل والنزاهة وكان زيد بن ثابت كاتب الرسول يكتب لأبى بكر، كما جمع حوله خيرة الصحابة وكون منهم مجلس شورى لاستشارتهم فيما يحدث من أمور أما قادة أبى بكر فى المعارك الحربية التى خاضها فهم أبطال المسلمين آنذاك وعلى رأسهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبى جهل وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان وأمثالهم من المغاوير.

وتسجل كتب التاريخ وصايا قدمها أبو بكر لقادته وأمراءه وهى تعد من أعظم الوصايا وأعمقها وتدل دلالة قوية على سمو فكر الخليفة وعظم كفاءته فهو يقول لأحد قادته: لا تغفل عن أهل عسكرك فيفسد العسكر ولا تتجسس عليهم فتفضحهم واقبل علانيتهم وكلهم إلى سرائرهم، ويرسم لخالد بن الوليد أمر القيادة أدق وصف حين يقول له: سر بالأدلاء وقدم إليك الطلائع لترتاد لك الطريق وإذا دخلت أرض العدو فكن فى المؤخرة وعينك فى المقدمة فإن أمنك أمن الجيش واحرص على الموت توهب لك الحياة، ولاتقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه.

ومن صور قضاء أبى بكر ماروى من أن عمر بن الخطاب أخذ ابنه عاصماً من زوجته المطلقة، ليشرف هو على تربيته فشكته الأم إلى أبى بكر، فقضى أبو بكر للأم بحضانة الطفل، وقال لعمر ريحها خير له منك.

وكان الرسول يمتلك قطعة أرض صغيرة فى «**فدك**» كانت نصيبه من الفيء، وكان الرسول يعطى ابنته السيدة فاطمة وبعض أهله جزء من نتاجها ويوزع الباقى بين فقراء المسلمين وبعد وفاة الرسول ذهبت فاطمة والعباس عم الرسول إلى أبى بكر يطلبان هذه القطعة باعتبارها ميراثا لهما من الرسول صلوات الله عليه، فقال لهما أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**نحن معشر الأنبياء لا نورث ماتركناه صدقة**»(١).

وقد كان أبو بكر يعلم حاجة فاطمة لهذه القطعة ولكن لم يكن باستطاعته أن يعطى من مال المسلمين أى جزء لأى أحد بدون وجه حق، ومن المؤكد أن أبا بكر رفض إعطاء فاطمة قطعة الأرض وهو فى أشد الألم، ولكنه كان ينفذ ما أوصى به الرسول ﷺ.

أبو بكر وسلطان ولاته:

كان الرسول صلوات الله عليه قد أعد جيش أسامة بن زيد للخروج إلى الروم رجاء أن يثأر أسامة لأبيه الذى قتل فى غزوة مؤتة، وكان عمر بن الخطاب جندياً من جنود أسامة فى هذا الزحف وتوفى الرسول قبل أن يخرج أسامة ولما تولى أبو بكر الخلافة أسرع بتنفيذ اتجاه الرسول وسار يودع أسامة وجيشه، ولكن أبا بكر كان فى حاجة إلى عمر ويريد أن يستبقيه معه بالمدينة، وربما جاز لنا أن نقول أن أبا بكر كان من حقه أن يصدر قراراً باستبقاء عمر، ولكنه لم يتجه هذا الاتجاه ورأى أن صاحب الشأن فى ذلك هو قائد الجيش، فتقدم أبو بكر إلى أسامة وهمس فى أذنه راجياً أن يسمح لعمر بالبقاء مع الخليفة فى المدينة، ففى ذلك مصلحة للإسلام والمسلمين، واستجاب أسامة لهذا الطلب دون تردد بطبيعة الحال.

وهذا الموقف يوضح لنا كيف أن أبا بكر كان حريصاً على دعم سلطان وإليه فيما تولاه دون أن ينتقص أحد أى قدر من سلطان الوالى.

يحلب للأرامل:

قبل أن يصبح أبو بكر خليفة كان من عادته أن يساعد المحتاجين بكل صور

(١) متفق عليه.

المساعدة، وكان من مساعداته أنه تعود أن يدخل بيت أرملة عجوز ليحلب لها شاتها ويساعدها فى إعداد الطعام، ولما تولى أبو بكر الخلافة أحست العجوز أن أبا بكر لن يستطيع أن يثابر على هذا العون، ولكن سرعان ماسمعت دقات على بابها فأرسلت حفيدة لها لترى من الذى يدق الباب وفتحت الطفلة الباب فرأت أبا بكر أمامها فصاحت الطفلة إلى جدتها: إنه حالب الشاة يا أماه: فقالت لها العجوز ويحك يا حفيدتى، لاتقولى حالب الشاة ولكن قولى خليفة رسول الله، فقال أبو بكر يا أماه. . إن الصفة التى ذكرتها الطفلة أحب إلى من كل الصفات.

جمع القرآن:

توفى رسول الله، والقرآن الكريم لم يجمع فى مصحف واحداً إنما كان محفوظاً فى صدور الحفاظ، وفى الصحف التى كانت عند الرسول، وفى صحف كتاب الوحى، وكان زيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن مسعود من خيرة حفاظ القرآن.

ويقول الباحثون المسلمون: إن الرسول لم يجمع القرآن فى مصحف واحد لاحتمال ورود نسخ لبعض الآيات أو لاحتمال نزول آيات جديدة، فلما انقضى هذا الاحتمال بوفاة الرسول أصبح جمع القرآن فى مصحف واحد عملاً، ضرورياً، وبخاصة ان عدداً كبيراً من الحفاظ قتلوا فى حروب الردة والمتنبئين، فاقترح عمر بن الخطاب على أبى بكر أن يجمع القرآن فى مصحف واحد خوفاً من أن يموت آخرون فتضيع بعض آيات القرآن وبعد تردد قصير تم الاتفاق على ذلك واستدعى أبو بكر زيد بن ثابت ليقوم بهذا العمل، فأحضر ماكتب من القرآن، وكتب مالم يكن مكتوباً تبعاً لما فى صدور الحفاظ ورتب هذه الصحف تبعاً لترتيب آى الذكر الحكيم كما أشار به جبريل، فتكون من ذلك مصحف كامل واحد ومرتب ترتيباً دقيقاً، وظلت هذه الصحف عند أبى بكر حتى مات، ثم عند عمر طيلة حياته، ثم عند حفصة بنت عمر بعد وفاة أبيها.

وقد نسخ عثمان رضى الله عنه من هذا المصحف عدة نسخ، أرسلت، إلى العواصم الإسلامية الكبرى واحتفظ عثمان لنفسه بنسخة، ورد النسخة الأصلية إلى حفصة وكان جمع القرآن وتدوينه مأثرة كبرى من مآثر أبى بكر وعمر وعثمان.

أسرة أبى بكر:

سبق أن ذكرنا أن والد أبى بكر كان ابن عم أمه وكلاهما من قبيلته تيم وقد تأخر إسلام أبيه ولم يدخل الإسلام إلا بعد فتح مكة ويروى أن أبا بكر أحضر أباه للرسول ليعلن إسلامه، فقال الرسول لأبى بكر: «**هلا تركت الشيخ فى بيته حتى آتية أنا؟**» فقال أبو بكر: هو أحق أن يمشى إليك يارسول الله، فأجاب الرسول بين يديه ومسح صدره وأعلن الشيخ إسلامه.

وقد تزوج أبو بكر بزوجتين فى الجاهلية هما فتيلة بنت عبد العزى فولدت له ابنه عبد الله الذى كان يأتيه بالأخبار وهو فى غار ثور مع الرسول، كما أنجبت ابنته أسماء ذات النطاقين وهى أم عبد الله بن الزبير.

وتزوج كذلك أم رومان بنت عامر من كنانة فأنجبت له عبد الرحمن الذى ذكرنا أن إسلامه قد تأخر إلى ما بعد غزوة بدر كما أنجبت عائشة أم المؤمنين وفى الإسلام تزوج أبو بكر أسماء بنت عميس فولدت له ابنه محمداً وقد تزوجت على ابن أبى طالب بعد وفاة أبى بكر وتربى محمد بن أبى بكر فى بيت على ويعد هذا الزواج تكريماً لأبى بكر لحمايته زوجته وتربية ابنه.

أبو بكر الصديق وحل المشكلات:

بدأ الإسلام ينتشر بعد صلح الحديبية، أى بعد السنة السادسة للهجرة وبعد هزيمة هوازن وثقيف بدأت الوفود ترد إلى الرسول معلنة إسلامها، وكان ذلك فى العام التاسع ومن هذا يتضح أن كثيرين ممن دخلوا الإسلام آنذاك لم يدخلوه عن اقتناع تام.

فمنهم من دخله مع الداخلين دون دراسة ودون إيمان، ومنهم من رأى الحروب ولم يفهم أنهالنشر الدعوة فدخل فى الإسلام تجنباً لخوض الحروب ضد المسلمين.

ومنهم من دخل الإسلام طمعاً فى مغنم أو جاه.. ولهذه الأسباب تمرد على الإسلام أولئك الذين تسرعوا فى الدخول فيه دون تفهم واعتقاد، وقد بدأ بعض هذا التمرد فى الشهور الأخيرة من حياة الرسول ثم ازداد عقب وفاته، فظهرت الجماعات التالية:

المتنبئون: وهم الذين ادعوا النبوة.

المرتدون: وهم الذين تركوا الإسلام وعادوا لأديان الجاهلية.

مانعوا الزكاة: وهم الذين توقفوا عن دفع الزكاة.

وهؤلاء فى الحقيقة أسماء مختلفة ولكنها تعبر عن مدلول واحد هو التمرد بدليل أن الأشعث بن قيس كان من مانعى الزكاة ثم انضم للمرتدين، وكانت كثرة مع الأسود العنسى الذى ادعى النبوة، فلما قتل انضمت للمرتدين، وكان أهل اليمامة من المرتدين فلما علا شأن مسيلمة انضموا له وهكذا.

ويروى أن أبا بكر استشار الصحابة والمسلمين فيما يفعل أمام هذه المشكلات العظام، فاتفق الرأى بعد النقاش على حرب من لا يستجيب للدعوة ويعود للحق، ووضعت قريش شبابها وأبطالها تحت إمرة الخليفة، فكون أحد عشر جيشاً يقودها أبطال المسلمين المشاهير مثل: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبى جهل، وشرحبيل بن حسنة وغيرهم.

وقد هز أعداد هذه الجيوش الجزيرة العربية، وقبل أن يوجهها أبو بكر فى اتجاهاتها المختلفة أرسل كتباً لجماعات المتمردين، أجاب فيها عن الشبهات التى تخطر لهم، ودعاهم إلى العودة إلى رحاب الإسلام، وأنذرهم إن استمروا على ضلالهم، وقد نجحت الكتب مع بعض الناس وبقى آخرون فى تمردهم، فاتجهت لهم الجيوش، وكانت جولتها ناجحة مظفرة كما سنرى فيما يلى ونحن نتحدث عن كل طائفة على حدة.

المتنبئون:

أفراد من العرب ادعوا النبوة، فقد أدهشهم أن الرسول صلوات عليه حقق بسبب النبوة هذا النجاح العظيم، وهذه الانتصارات الكبرى، فادعوا أنهم أنبياء لعلهم ينالون بعض ما ناله محمد من مجد وماجلبه لقريش من فخر.

وقد ساعدتهم قبائلهم على هذا الادعاء على الرغم من وضوح الكذب فيه، لأن هذه القبائل كانت ترى فى النبوةرياسة، فحرصت على تأييد الذين ادعوا النبوة فيها لتكون لهم مكانة خاصة بين العرب فى الجزيرة العربية.

والذين ادعوا النبوة هم:

١ - عبلة ذو الخمار باليمن وهو المعروف بالأسود العنسى، وقد بدأ ادعاءه فى حياة الرسول، وقد ساعده مكانه البعيد فى جنوب الجزيرة فحقق بعض النصر واستولى على بعض مناطق الجنوب، ولكن جيوشه سرعان ما هزمتها جيوش المسلمين وقتل هذا المدعى فى الليلة التى توفى الرسول فى صبيحتها.. وانتهت هذه الفتنة.

٢ - طليحة بن خويلد من بنى أسد، وقد تبعه قومه كما تبعه طيء وغطفان، وعادتا للإسلام، وبقى معه بنو أسد، ولكن طليحة انهار أمام خالد فقبض عليه خالد، وأرسله إلى المدينة ولكنه أعلن توبته وعاد للإسلام وحسن إسلامه واشترك فى الفتوح الإسلامية.

٣ - مسيلمة الكذاب من بنى حنيفة باليمامة: وهو أكثر المتنبئين خطراً، وقد بدأ ادعاءه فى حياة الرسول، إذ كتب إليه يقول من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد فإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشاً لا ينصفون، والسلام عليك فكتب له الرسول يقول: بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، والسلام على من اتبع الهدى. وهناك عوامل ساعدت على ازدياد خطرمسيلمة وهى:

أ - قوة بنى حنيفة وبطولتهم الحربية.

ب - استطاع مسيلمة أن يخدع الرَّجال بن عنفوة الذى أرسله الرسول لمسيلمة ليعظه ويرده عن غيه، ولما خدع الرجال كذب وأعلن أن محمداً أشرك مسيلمة فى الأمر.

جـ - تزوج مسيلمة من امرأة تدعى« سجاح» كانت قد ادعت النبوة أيضاً فى بنى تميم الذين كانت ديارهم على مقربة من بنى حنيفة، وكانت مطاعة فيهم فانضم أتباعها إلى أتباع زوجها مسيلمة.

المرتدون:

جماعة دخلوا الإسلام عن غير عقيدة وعن غير فهم، فلما ظهر المتنبئون

وانشغل المسلمون بالصراع معهم انتهز المرتدون هذه الفرصة، وأعلنوا خروجهم عن الإسلام بالصراع معهم وعودتهم إلى الجاهلية، وقد انضم بعضهم إلى المتنبئين، واكتفى بعضهم بترك الإسلام، دون أن ينضموا إلى أحد، وقد انتشرت الردة فى بنى عامر وهوازن وسليم، ولكن خطورتها كانت فى سكان البحرين الذين يروى أنهم كانوا تحت قيادة رجل اسمه «الحطم» من بنى قيس بن ثعلبة وكان كثير من سكان البحرين من عناصر يهودية وفارسية شجعت المرتدين على التمسك باتجاهاتهم المنحرفة، وانتهز الفرس حركة الردة فى هذه المنطقة فأرسلوا جيشاً بقيادة رجل اسمه «المكعبر» فى محاولة لإعادة احتلال المناطق العربية وضرب الإسلام.

واستنجد مسلمو البحرين بأبى بكر ليعاونهم ضد الفرس فأرسل لهم جيشاً بقيادة العلاء بن الحضرمى، كما طلب من خالد بن الوليد أن يذهب لمساعدة العلاء عقب الانتهاء من حرب مسيلمة، وقبل أن يصل خالد دارت معارك بين العلاء وجيوش المرتدين، كانت تنشط نهاراً وتهدأ ليلاً، وحدث مرة أن سمع العلاء حركة فى معسكر الحطم فى جوف الليل، فأوفد إلى معكسر المرتدين من يأتيه بخبر الضوضاء وعاد الرسول ليقول له أن القوم قد شربوا وثملوا، وأنهم يتراقصون، ويغنون، فأطبق عليهم العلاء ورجاله فهزموهم شر هزيمة وقتل الحطم فى هذه المعركة.

ثم حضر خالد بن الوليد بجيشه وخططه فأكمل النصر عليهم وأدرك المرتدون أن لاقبل لهم بالصمود أمامه ففروا إلى الجزر الداخلية (البحرين الآن) وأحرقوا السفن حتى لا تستطيع جيوش المسلمين أن تلحق بهم، وهنا تحول خالد بن الوليد، إلى العراق بناء على طلب الخليفة وترك الأمر للعلاء الذى أصر على ملاحقة الهاربين، وتقول الرواية أن العلاء وقف بجيشه أمام الماء الذى يحول بينه وبين المرتدين وصلى العلاء فى تضرع ودعا الله أن يمكنه منهم، فانحسر الماء بحيث يمكن خوض المسافة بين الشاطئ والجزر وحينئذ زحف العلاء بجيشه، وداهم المرتدين وقد ظنوا أنهم آمنون، فأعلن بعظهم عودته للإسلام وأسفه لما بدر منه، وقضى العلاء على من بقى على كفره ثم زحف إلى التجمعات التى التفت حول المكعبر، وحقق عليهم انتصاراً عظيماً.

ويورد الطبرى موقفاً آخر من الكرامات يتصل بهذا الصراع، فإن جيش العلاء

تعرض لعطش قاتل، فاتجه العلاء إلى الله سبحانه وتعالى واستجاب الله إليه، إذ سرعان ما رأوا ماء يلمع فهبوا إليه وشربوا واستراحوا، بل رأته القوافل فاتجهت إليه من كل صوب، قال أبو هريرة لقد عدت بعد حين لأتأكد من حال هذا الغدير، وهل هو غدير فعلاً، أو منحة من الله سخرها لحاجة المسلمين، فلم أجد غديراً فى المكان، ولم أجد إلا أثر الغدير، كان وراح.

مانعوا الزكاة:

مانعوا الزكاة جماعة توقفت عن دفع الزكاة مدعية أنها ضريبة، ومن المعروف أن الزكاة تؤخذ من أغنياء البلدة لتعطى إلى فقرائها، وهى ركن من أركان الإسلام من أنكرها كفر، ومن منعها حاربه ولى الأمر حتى يدفعها.

وأغلب مانعى الزكاة كانوا من اليمن اليمامة ومنهم كذلك مالك بن نويرة سيد بنى حنظلة حيث أساءوا فهم الآية الكريمة: ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**﴾(سورة التوبة ١٠٣) وظنوا أن الرسول وحده ـ والخطاب فى الآية له ـ هو الذى يجوز له أن يأخذ الزكاة ففى ذلك تطهير وتزكية لهم، وقد نسى هؤلاء التفسير الدقيق للآية الكريمة، كما نسوا الآيات الأخرى التى تقرر أن للفقير حقاً فى مال الغنى مثل قوله تعالى: ﴿ **والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحرم**﴾ (سورة المعارج الآيتان ٢٤ ـ ٢٥).

وقد اتجه بعض المسلمين إلى محاربة المتنبئين والمرتدين وعدم محاربة مانعى الزكاة باعتبارهم مسلمين، ولكن أبا بكر صرخ قائلاً: والله لو منعونى عقال بعير كانوا يعطونه لرسول الله لحاربتهم عليه[1].

وأرسل أبو بكر جيشاً بقيادة خالد بن الوليد فانتصر عليهم وقتل مالك بن نويرة.

القراء فى المعارك:

ومما يذكر أن القراء(حفظة القرآن الكريم) كان لهم دور كبير فى هذه الحروب، فقد استطاعوا بصمودهم أن يبرهنوا على عزيمة قوية وعلى بطولة فائقة، ويروى

---

(١) متفق عليه.

أنهم كانوا حملة اللواء فى هذه الحروب ولما انكشف المسلمون فى إحدى مواقع هذه الحروب كان غضب القراء بالغاً وصاحوا: ماهكذا كنا نفعل مع رسول الله ﷺ وأخذ كل واحد منهم يخط فى الأرض خطاً بحيث لا يتجاوزه إلى الوراء ويقاتل مستميتاً دون أن يتقهقر حتى ينتصر أو يموت.

وينسب للقراء أنهم فى هذه الحروب ألفوا كتائب فدائية انتحارية كان شعارها النصر أو الموت، وقد استطاعوا بذلك أن يسحقوا الأعداء فى مواقف كثيرة ويحققوا النصر للإسلام والمسلمين.

وعلى كل حال فقد عادت الجيوش إلى المدينة وبعد أن عادت للجزيرة العربية وحدتها وتمسكها بالدين الحنيف وبعد أن زالت الشبهات والترهات بالحكمة عند من عرف الحكمة أو بالسيف عند من دفعته العصبية الضالة إلى السيف، ولم تعرف الحكمة إلى نفسه سبيلا.

التوسع الإسلامى:

إن الحروب التى دارت فى الجزيرة العربية جددت الأمل عند الفرس والروم بأن العرب سيقضون على الإسلام ولهذا قدم الفرس والروم للعرب الثائرين على الحكم الإسلامى كثيراً من المساعدات ثم أوت الفارين منهم ولذلك لم يكد المسلمون يعيدون الجزيرة إلى وحدتها حتى كان الأوان قد آن للزحف نحو الشمال لمواجهة العدوين الكبيرين اللذين يعملان للقضاء على الإسلام، ومات أبو بكر والمعارك دائرة بين المسلمين من جهة وبين الفرس والروم من جهة أخرى وظهرت ثمرة هذا العمل فى عهد عمر، ولذلك سنؤجل الكلام عن هذا التوسع لنتحدث عنه عند الحديث عن الخليفة عمر.

أبو بكر وبيت المال:

فى مطلع الإسلام كان أبو بكر غنياً واسع الثراء إلى حد كبير ولكنه سرعان ماسأل نفسه: كيف يحق لى أن أنعم بالغنى وحولى كثيرون من المسلمين المحتاجين؟ وسرعان ما اتخذ أبو بكر قراره بأن أباح ماله لكل ما يخدم الإسلام والمسلمين ولم يستبق لنفسه إلا مايسد الرمق ثم آلت له الخلافة وأراد أن يستمر فى التجارة ليكسب قوته وقوت أهله ولكن عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح اعتراضاه

وقالا له: كيف تمشى إلى السوق وأنت مسؤول عن مشكلات المسلمين؟ فقال لهما: ومن اين أجد رزقى ورزق أهلى؟ فقالا له: نفرض لك من بيت المال ما يكفيك.

وحدد لأبى بكر مقدار من بيت المال يكفى حاجته، ولكن أبا بكر كان زاهداً فى مال المسلمين وعاش بقية عمره ينفق ما كان عنده ولما حضرته الوفاة قال لابنته عائشة: ياعائشة ما أصبنا من مال المسلمين قليلاً ولا كثيراً فردى إلى بيت المال ما تبقى عندى من المال، وكان لا يملك آنذاك إلا بعيراً ويستقى عليه الماء وعباءة يستقبل بها الوفود.

وفاة أبى بكر:

مرض أبو بكر ثم توفى بعد أن أمضى فى الخلافة عامين وبضعة شهور، وهى مدة وجيزة ولكنها حاسمة فى تاريخ الإسلام، لقد واجه أبو بكر فيها أحرج المواقف، ولكنه بإيمانه ويقينه سرعان ماسار بالمسلمين يهزم الباطل، ويعيد الحق إلى نصابه ثم سار بهم يحطم قصور الطغيان فى الفرس والروم ولا نكاد نجد موقفاً عظيماً فى صدر الإسلام إلا وجدنا أبا بكر بارزاً فيه.

وقد دفن أبو بكر بجوار الرسول فى بيت عائشة رضى الله عنها رحم الله أبا بكر، لقد تمثلت فيه كل المعانى الإسلامية الرائعة.

ونختم كلامنا عن أبى بكر الصديق، بإيراد ما قاله الإمام على رضى الله عنه فى تأبينه قال: «كنت كالجبل الذى لا تحركه العواصف وتزيله القواصف، كنت ضعيفاً فى بدنك قوياً فى أمر الله، متواضعاً فى نفسك عظيماً عند الله، جليلاً فى الأرض كبيراً فى السماء، ولم يكن لأحد عندك مطمع، ولا لأحد عندك هوادة».

[٢]

الفاروق عمر

هو عمر بن الخطاب بن نضيل القرشى من بنى عدى الذين كان لهم قبل الإسلام، وبعده، شرف ومجد ومكانة عظيمة وكانت لهم السفارة والتحكيم فى الجاهلية، وانتقلت فيهم هذه الصفة جيلاً بعد جيل.

وقد ولد عمر بن الخطاب بعد مولد الرسول بحوالى ثلاثة عشرة سنة وكان عمر يشتغل فى صباه بالتجارة، كما كان سفير قومه إذا تأزمت الأمور بينهم وبين الآخرين واشتهرت عنه قبل الإسلام وبعده شجاعة لا تعرف الخوف، وعزيمة لا تعرف التردد.

وكانت الدعوة الإسلامية فى مطلعها ضعيفة تحتاج إلى قوة، ولذلك أثر عن الرسول أنه قال: اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين عمرو بن هشام (أبو جهل) أو عمر بن الخطاب، وقد استجاب له الله فأسلم عمر فى السنة الخامسة للدعوة، وكان إسلامه فتحاً مبيناً وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: مازلنا أعزة منذ أسلم عمر، كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى فى البيت خوفاً من قريش، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا وقصة إسلام عمر ترتبط ارتباطاً كبيراً بجرأته فمن المعروف أن قريشاً عندما استقر رأيها على قتل محمد ﷺ قبيل الهجرة لم تستطع أن تقدم على هذا العمل إلا بعد أن انتدبت من كل قبيلة شاباً جلداً ليقوم الجميع بهذه المحاولة الظالمة ولكن عمر عندما اعتقد قبل الإسلام أن الدين الجديد خطر على تقاليد قومه وأوضاعهم قرر أن يمشى وحده ليقتل محمداً.

وقد انتهت خطوته إلى الإيمان والدخول فى الدين الجديد أما قصة إسلامه فخلاصتها أن عمر خرج متحمساً يريد قتل رسول الله ﷺ بدعوى أنه فرق قريش وسبَّ آلهتها فلقيه نعيم بن عبد الله، وسأله عن مقصده فلما عرف اتجاهه صاح فيه قائلاً: خير لك أن ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم، فقد التحقت أختك فاطمة وزوجها سعيد بن زيد بالدين الجديد فثار عمر واتجه لدار أخته، وقبل أن يدخل الدار سمع تلاوة القرآن، مما جعله يوقن بصدق نعيم، ودق الباب فلما

عرفت أخته بقدومه أخفت الصحيفة واختفى خباب بن الأرت الذى كان يقرأ القرآن لفاطمة وزوجها، واندفع عمر غاضباً وسأل أخته: ماذا كنتم تقرءون؟ فاضطربت أخته ولطمها عمر، ولطم زوجها، فصاحت به أخته: إنه ليس من حقك أن تلطمنا وأدرك عمر غلطته فتراجع وهدأ وطلب أن يرى الصحيفة ولما سمع آيات القرآن الكريم، ارتجف بدنه، وأدرك أن هذا ليس من قول البشر، وسرعان ما ذهب إلى رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه[1].

وهناك رواية أخرى عن إسلام عمر يرويها ابن إسحاق عن عمر نفسه حيث يقول: كنت للإسلام مباعداً وكنت صاحب خمر فى الجاهلية، وكان لنا مجلس نلتقى فيه لنشرب الخمر فذهبت هذا فلم أجد أحداً فذهبت إلى خمار لأشرب عنده بعض الخمر فلم أجده فتحولت إلى الكعبة لأطوف بها قبل أن أعود للبيت فلما جئت المسجد رأيت رسول الله قائما يصلى ويقرأ القرآن فى صلاته، فقلت لنفسى: ماذا لو سمعت محمدًا حتى أرى مايقول: فدنوت منه ولكنى لم أرد أن أروعه فدخلت تحت أستار الكعبة وجعلت أمشى رويدًا حتى أصبحت مواجهاً للرسول، وليس بينى وبينه إلا ثياب الكعبة وأخذت أستمع إليه، وطالت قراءته وعمقت نبراته وطال استماعى، وعمق تأثرى، ورق قلبى، فبكيت وأدركت أنى على خطأ، وأن محمدًا على صواب، ودخلت الإسلام وظللت فى مكانى حتى انتهى الرسول من صلاته وانصرف فلحقت به، وأعلنت إسلامى فكبر وحمد الله.
والروايتان تدلان على قوة هائلة تدفع صاحبها لإعلان عقيدتها دون تهيب أو تردد ومن الأشياء العظيمة التى تنسب لعمر ما أوردناه عند حديثنا عن أبى بكر من أنه هو الذى أشار بجمع القرآن بعد وفاة الرسول خوفاً من ضياع بعض آياته بسبب موت الحفاظ وبخاصة فى حروب الردة والمتنبئين وعندما تردد أبو بكر فى الاستجابة لرأى عمر، ألح هذا عليه وخوفه من احتمال ضياع آية أو آيات من الذكر الحكيم، وسرعان ما استجاب أبو بكر لرأى عمر ونفذ هذا العمل العظيم.

توليته الخلافة:

شهد أبو بكر الخلافات التى حدثت عقب وفاة الرسول ﷺ والأطماع التى أوشكت أن تفرق كلمة المسلمين، وقبل وفاة أبى بكر كانت الجيوش الإسلامية

(١) وإسناد هذه القصة فيه ضعف.

تخوض أعنف المعارك التى عرفها التاريخ فى ذلك الحين إذ كانت الحروب دائرة بين المسلمين من جهة وبين الفرس والروم من جهة أخرى والجيوش فى ميدان القتال تحتاج إلى عون متصل من العاصمة، عون بالرأى والسلاح والرجال وغير ذلك، ورأى أبو بكر أنه لو ترك المسلمين بلا خليفة فإنهم قد يختلفون اختلافاً كثيراً أو قليلاً واضطراب العاصمة سيؤدى إلى هزيمة كبيرة للجيوش المحاربة، وقد يمتد الخلاف للجيوش نفسها، فيؤيد قائد مرشحاً، ويؤيد قائد آخر مرشحاً آخر فتنشأ معارك بين جيوش المسلمين وتنتشر الفتن ومن أجل هذا رأى أبو بكر أن يتسشير المسلمين ليختاروا من يخلفه ويصدر أبو بكر قراراً بذلك وكان عمر هو مرشح الخليفة ومرشح الناس، ومن غير عمر لهذا المكان ولذلك كتب أبو بكر وثيقة تعيين عمر بعد الاستشارة واتحاد الكلمة.

دستور عمر:

عقب وفاة أبى بكر، وتسلم عمر لمهام منصبه ألقى خطاباً يوضح فيه دستوره وطريقة تصرفه، وفيه يقول: « بلغنى أن الناس هابوا شدتى، وخافوا غلظتى وقالوا قد كان يشتد علينا ورسول الله بيننا ثم اشتد علينا وأبو بكر خليفتنا، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟ وأقول لهؤلاء إننى كنت مع رسول الله فكنت عبده وخادمه وكان لا يبلغ أحد صفته فى اللين والرحمة فكنت بين يديه سيفاً مسلولاً، حتى يغمدنى أو يدعنى فامضى، ثم ولى أبو بكر أمر المسلمين وهو من لا ينكر أحد دعته ولينه فكنت خادمه وعونه أخلط شدتى بلينه فأكون سيفاً مسلولاً، حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى، ثم إنى وليت أموركم أيها الناس، فاعلموا أن تلك الشدة قد زادت، ولكن على أهل الظلم والتعدى على المسلمين، أما أهل السلامة فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض، ولست أدع أحد يظلم أحدًا، أو يعتدى عليه حتى أضع خده على الأرض واضع قدمى على الخد الآخر حتى يعود للحق.

« أما أهل العدل والقصد، فإنى أضع لهم خدى على الأرض حباً وإجلالاً».

وذلك كان دستور عمر الذى لم يتخلف عن تنفيذه فأبو سفيان مع حوله وطوله، يظلم مسلماً فيأمره عمر أن يرد للمسلم حقه، فيتردد أبو سفيان، وحينئذ يهوى عليه عمر بالدرة ولا يدعه حتى يعيد الحق إلى نصابه وجبله بن الأيهم آخر

(١) متفق عليه.

ملوك الغساسنة يدخل الإسلام، ويذهب ليطوف بالبيت وهناك يطأ أعرابى إزاره سهواً، فيلتفت الملك إليه، ويلطمه على وجهه ويشكو الأعرابى لعمر، فيقضى عمر بالقصاص، أى أن يلطم الأعرابى وجه الملك ولما احتج جبلة بأنه ملك والأعرابى سوقة، أجابه عمر: لقد سوى الإسلام بينكما.

لمحة من صفاته:

كان عمربن الخطاب طويل القامة، إذا رآه الرائى من بعد وهو يمشى ظنه راكباً وكان أعسر بجانب تيمنه أى أنه كان يعمل بكلتا يديه، وكان أصلع خفيف العارضين وكان إذا ذكر الله أو شاهد مظلوماً بكى، وأجهش بالبكاء، ولكنه إزاء الظالم كان ثورة تخيف وترغم الظالم عل الخضوع.

وقد استأذن عمر مرة على الرسول ﷺ، وعنده جماعة من النساء يستفتين الرسول ويفتيهن،فلما أذن الرسول لعمر بالدخول جمعت كل امرأة نفسها وأسرعت بالاختفاء وضحك الرسول لهذا التصرف، ودخل عمر والرسول ﷺ يضحك فقال عمر للرسول: أضحك الله سنك يارسول الله كأنه يسأل عن سبب ضحكه.

فقال الرسول: عجبت من هؤلاء النسوة، كن عندى جالسات فلما سمعن صوتك أسرعن بالاختفاء.

قال عمر: كنت أولى يارسول الله، أن تهاب واتجه عمر نحو المكان الذى اختفت النسوة فيه قال: أتهبننى ولا تهبن رسول الله أيتها النسوة؟ فأجابت إحداهن: نعم نخاف شدتك [١].

وكان عمر بن الخطاب قوياً حاسماً يهابه الأبطال، ولا تخشى فى عهده فتنة أو تمرد، ويروى أنه لما عزل خالد بن الوليد غضب خالد، وقال لمن حوله إن أمير المؤمنين استعملنى على الشام حتى إذا استقر الأمر وأصبحت الحال حنطة وعسلاً عزلنى، وولى غيرى، فنهض رجل من السامعين وصاح: مهلاً ياخالد فإن كلماتك تثير الفتنة، فقال خالد: لا فتنة وعمر بن الخطاب حى. ورأى عمر بن الخطاب شيخاً ضريراً يسأل الناس، فسأله عمر عن سبب سؤاله فقال: الحاجة والسن،

---

(١) متفق عليه.

فأخذ عمر بيده وأخذه إلى منزله وأعطاه عطاء سريعاً، ثم أرسله إلى خازن بيت المال ومعه رسالة يقول فيها: انظر هذا ونظراءه فأعطهم من بيت المال ما يقضى حاجتهم، فوالله ما أنصفنا هذا إذا نحن أكلنا شبيبته ثم خذلناه عند الهرم ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين**﴾وهذا من مساكين أهل الكتاب.

عمر وأهل البيت:

كان عمر كثير الإجلال لآل البيت لقد فضلهم فى العطاء على كل المسلمين حرصاً على سلامة العترة النبوية من الحاجة، وتقديراً لما بينهم وبين الرسول من رحم وقرابة ويروى أن أكسية وردت لبيت المال وأخذ عمر يوزعها على المسلمين ولكنه لم يجد فيها ما يصلح للحسن والحسين فأرسل إلى اليمن يطلب كسوة صالحة لهما، فلما حضرت وسلمها إليها قال: الآن طابت نفسى وكان على بن أبى طالب قاضى المسلمين خلال عهد عمر،وحدث مرة أن حضر إلى عمر خصوم يطلبون القضاء فى مسألة من المسائل فقال لهم عمر:تعالوا بنا إلى على،وصحبهم إليه فقال له على: ألا أرسلت إلى لأحضر إليك؟ فقال عمر: أنت أحق أن أمشى إليك.

وأرسل الإمام الحسين مرة إلي عمر بن الخطاب يذكر له أنه يريد أن يحضر إليه ليحادثه فى أمر مهم ، فاستجاب عمر وأرسل للحسين يرحب بمقدمه وجاء الإمام الحسين فلما صار قريباً من بيت عمر قابله عبد الله بن عمر، فسأله الحسين عن أبيه فأجاب عبد الله أنه استأذن للدخول عليه فلم يؤذن له فظن الإمام الحسين أن مانعاً طرأ على الخليفة جعله يعكتف عن لقاء الناس، فعاد دون أن يواصل مسيرته للخليفة والتقى الخليفة بعد حين بالإمام حسين فسأله: لماذا لم تحضر لى؟ فأجاب الحسين: عرفت فى الطريق من عبد الله بن عمر أنه لم يؤذن له عليك فرجعت فقال عمر فى تأثر: وهل أنت مثله؟ وهل أنت مثله؟

والباحث فى تاريخ عمر بن الخطاب يجد أنه كان دائماً خائفاً من الله، ظانا أن عمله قد لا يوصله للنجاة وقد جرى بينه وبين أبى موسى الأشعرى حوار يوضح خوف عمر وفيما يلى خلاصته:

عمر: أترى يا أبا موسى أن إسلامنا وهجرتنا وعملنا مع رسول الله تكفى لكفاف فلا يكون لنا ولا علينا.

أبو موسى: إننا ينبغى أن نطمع فى الثواب من الله جزاء ما قدمنا من جهود لخدمة الإسلام والمسلمين ولنشر الإسلام بين الناس.

عمر: النسبة لى لأنى لا أطمع إلا فى النجاة بحيث لايكون لى ولا على .

وقد اتجهت نفس عمر مرة للغرور فأسرع يعاقبها ويعرفها قدرها فيروى أنه مرة صعد المنبر، وقال: أيها الناس، لقد رأيتنى وأنا أرعى الغنم لخالات لى من بنى مخزون نظير قبضة من تمر أو من زبيب.

ودهش الناس لما قاله عمر، ولم يعرفوا مناسبة لهذا القول.

فسأله عبد الرحمن بن عوف: ماذا أردت بذلك يا أمير المؤمنين؟ فأجاب عمر إحساس بلحظة غرور فأردت أن أعيد نفسى إلى مكانها.

وكان عمر شديداً على أهله حتى لا يأخذوا من صلتهم به وسيلة للانحراف، ويروى أنه كان إذا أصدر قانوناً أسرع بجميع أهله ويقول لهم: « إنى نهيت الناس عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون إليكم فإن هبتم القانون هابوه وإن أهملتم القانون أهملوه، وإنى والله إن رأيت أحدكم وقع فى الخطأ لأضاعفن عذابه فمن شاء منكم أن يحمى نفسه فليحمها من الله ومنى، ومن لم يصن نفسه قومناه بشدة حتى يكون عبرة لمن يعتبر وكان عمر يشعر أنه مسؤول عن أخطاء ولاته وأنه لا يعفيه من المسؤولية أنه أحسن اختيارهم، وقد قال مرة لمن حوله: أرأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم، ثم أمرته بالعدل، أكنت قضيت ما التزمت به؟ قالوا نعم قال: لا. . حتى أنظر فى عمله لأراه أعمل بما أمرته أم لا.

عمر وعام الرمادة.

حدثت فى عهد عمر حادثة جسيمة أو قل أحداث جسام، فلقد نزلت بالمجتمع الإسلامى مجاعة قاسية ولكن الناس جميعاً أحسوا أن عمر يشاركهم الجوع، ويعمل كل جهده لتخفيف آلامهم وهكذا كان التعاطف بين المسلمين كبيرهم وصغيرهم أهم وسيلة لمواجهة المأساة ماذا تقول المصادر التاريخية عن عام الرمادة؟ وطيلة تسعة شهور تبتدئ من أواخر السنة السابعة عشرة للهجرة لم يهطل المطر بالجزيرة العربية، ثم تحركت الطبقات البركانية بداخل الأرض، فاحترق سطحها وكثر الرماد الناعم، الذى تحمله الرياح حتى سمى هذا العام «عام الرمادة».

والجزيرة العربية تعيش على المطر فهو ينزل فيشرب الناس ويزرعون وتخضر المراعى فترعى الماشية، وتربى اللحم والصوف، وتدر اللبن، فإذا توقف المطر، وطال توقفه، جف الزرع والضرع، وعم الجوع والبلاء وهلكت الماشية أو أصبحت عجفاء هزيلة، وهذا ما حصل فى هذا العام فإن الماء نضب ونضب معين الرزق وجفت الماشية حتى أصبح العربى يذبح الشاة، ثم يكره لحمها، لهزالها وجفافها.

وقد شملت هذه البلوى الحضر والبادية فى الجزيرة العربية، وهرع أهل البادية إلى المدينة حيث يعيش الخليفة يطلبون منه أن يدبر أمرهم ويلتمسون عند أهل الحضر شيئاً مما تعود هؤلاء أن يختزنوه.

أحس عمر بجوع الناس وحرمانه فحلف ألا يذوق لحماً ولا سمناً حتى يكشف الله الضر ووضع دستوره العادل حين قال: كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يمسنى ما يمسهم؟ قال عياض أحد الصحابة: رأيت عمر عام الرمادة وقد تغير لونه من الحرمان وأكل الزيت، وقال يزيد بن أسلم: لو لم يرفع الله الضر عام الرمادة لظننا عمر يموت هماً بأمر المسلمين وكتب عمر إلى الولاة فى الشام وفلسطين والعراق ومصر يطلب منهم النجدة، والعون وكانت كتبه إليهم قصيرة عميقة التأثير، ونصها: سلام الله عليك أما بعد افترانى هالكاً ومن معى وتعيش أنت ومن معك؟ فواغوثاه.

لم يصدر عمر أوامره، مع إمكانه أن يفعل ذلك، وكا مافعله هو هذه المقارنة التى تقرر ضرورة التعاون فى السراء والضراء، وأن من العدل أن يقتسم الناس الخير والشر، وليس من الإسلام أن يجوع ناس ويشبع آخرون، وسارع المسلمون من كل مكان يلبون الدعوة وانهال العطاء من كل جانب بكثير من السخاء والكرم، فقدم أبو عبيدة بن الجراح من حمص فى أربعة آلاف راحلة محملة بالطعام، وكتب عمرو بن العاص من مصر للخليفة يقول: أما بعد فيالبيك ثم لبيك، قد بعثت إليك بعير أولها عندك وآخرها عندى وأرسل معاوية ثلاثة آلاف بعير من دمشق، وبعث سعد بن أبى وقاص ألف بعير من العراق تحمل الدقيق.. هذا عدا الأكسية الكثيرة التى أرسلها هؤلاء وكان عمر يرسل من يستقبل العير، ويميل بها إلى المحتاجين، ويوصى بنحر الإبل، وأكل لحمها وخزن بعضه، كما كان يوصى بأن يصنعوا من الدقيق خبزهم، وأن يخزنوا منه حتى يأتى الله بالفرج.

وكان عمر يصنع طعاماً فى بيته وبيوت الصحابة، ويقدمه للوافدين من البادية وقد بلغ من طعموا على هذه الموائد ذات ليلة عدة آلاف أما المرضى والضعفاء فكان يرسل لهم طعامهم حيث هم.

هذا بخلاف الأسر بالمدينة التى كانت تأخذ الدقيق والأدم وتتولى الطبخ بنفسها ووضع عمر دستور التعاون، الذى نعتقد أن المدينة فى أسمى مراحلها لم تستطع أن تصل إليه قال: لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت من يقاسموهم أنصاف بطونهم لفعلت فإن الناس لن يهلكوا على أنصاف بطونهم.

الفاروق عمر
ومواجهة الفرس والروم

عندما جاء الإسلام كانت الجزيرة العربية مفككة الأوصال، وكانت مشغولة بصراع داخلى ، وكانت أجزاء منها خاضعة لدولة الفرس، وأجزاء أخرى خاضعة للروم الذين كانوا يحتلون الشام.

فلما جاء الإسلام ووحد بين القبائل العربية، وكون فى شبه الجزيرة قوة هائلة لها عقيدة ودستور وعليها أن تنشر تلك العقيدة وذلك الدستور القرآنى العظيم فى جميع أرجاء العالم،عندما تم ذلك، وجد الفرس والروم أن من الضرورى مواجهة هذه القوة الجديدة والقضاء عليها وقد بدأت هذه المواجهة فى حياة الرسولﷺ عن طريق غزوة مؤتة وغزوة تبوك،ولكن الغزوتين لم تقررا التفوق لأى من القوتين.

فلما توفى رسول الله، وثارت المشكلات والانتفاضات فى عهد أبى بكر، ظن الفرس والروم،أن الفرصة سانحة لهم للقضاء على القوة الجديدة بالجزيرة العربية، فأيدوا الثائرين والمتمردين، وأمدوهم بالسلاح والذخيرة، والمال والرجال ولما انهزم هؤلاء وتراجعوا، وجدوا فى بلاد الفرس والروم ملاذاً لهم.

وهكذا كان من أهم أسباب الصراع بين المسلمين من جانب وبين الفرس والروم من جانب آخر وهو عون الدولتين للمتمردين ضد القوة الإسلامية. ولهذا يقرر الباحثون المسلمون أن صراع المسلمين ضد الفرس والروم كان امتداداً للصراع ضد المرتدين والمتنبئين ومانعى الزكاة وسندون بإيجاز تاريخ هذه الحروب التى انتهت بسقوط إمبراطورية الساسانيين ببلاد الفرس، وبطرد الروم من الشام ومصر والشمال الأفريقى، ولكى تتضح لنا أسباب انتصارات المسلمين فى معاركهم ضد الفرس والروم ينبغى أن نبدأ بإيضاح حالة الفرس والروم قبل الإسلام.

بعد أن مضى على ظهور الإسلام حوالى ربع قرن، وسمعت عنه الشعوب ببلاد الفرس والروم، وسمعوا عما حققه من انتصارات وعن مبادئه السمحة، ولأول مرة يسمعون عن دين يساوى بين الناس وبينما كانوا يسمعون عن ذلك ويعرفونه، كانوا يعيشون فى حياة بعيدة كل البعد عنه كانت دولتهم قد شاخت

وآن لها أن تزول وعظماؤهم أضعفهم التنافس على السلطان وهدهم البذخ، وشعوبهم أضعفتها الخلافات الدينية واستبداد الملوك، وكان الجندى يبدو أنه يدافع عن وطن لاحق له فيه فلماذا يبذل من أجله روحه؟ ولماذا يريق دمه؟ ولقد كان الفرس يدركون أن جنودهم يحاربون دون رغبة، حتى اضطر قائد الفرس فى موقعة نهاوند أن يقيد جنوده بالسلاسل حتى لا يفروا وقد سميت هذه الموقعة «موقعة ذات السلاسل» وسيأتى الكلام عنها، وانتشر فى فارس مبدأ الحق الإلهى المقدس، وذلك يجعل الملوك ظل الله على الأرض ويبعد الهوة بينهم وبين شعوبهم وكان الفرس والروم فى معارك تكاد تكون متصلة.

والإمبراطورية الرومانية كانت واسعة تمتد من الشام فمصر وشمال أفريقية إلى شبه جزيرة أيبيريا(أسبانيا)وهى بذلك تشمل عدة دول وعدة أجناس وأباطرة الرومان قساة محتلون، تثور عليهم الدول الخاضعة لهم من حين إلى آخر فيقسون فى تأديبهم ويريقون دماءهم ويأخذون أموالهم، وإذا لم تثر هذه الدول فمعنى ذلك أن الثورة كامنة، أنها نار تتأجج فى صدورهم ضد الاستبداد والضرائب الفادحة التى كانت تؤخذ على الرؤوس والملابس وأثاث المنازل بل على الأصوات وحسبك أن تعرف أن مصر كانت تعرف عند الرومان بمزرعة القمح، حيث يزرع المصريون ويحصدون ثم يؤخذ منهم نتاجهم دون عدل أو رحمة، وقبل أن يزحف المسلمون على الروم كانت الإمبراطورية قد بدأت تتصدع فقد أغار القوط على أسبانيا وأخذوها وهاض الجناح الغربى وأوشك الجناح الشرقى أن يتحطم على يد العرب.

ويقول(كيرك) أن أكثر أهل المدن والريف فى دول الشرق الأوسط الخاضعة للروم كانوا يعيشون من جراء ثقل الضرائب الباهظة وفساد الموظفين فلم يدينوا بشىء من الولاء لهذا الحكم، ومن جهة أخرى نجد الكنيسة المسيحية كثيرة الخلافات، مبادئها شديدة التعقيد، لم يبق فيها شىء من الإخاء الذى امتاز به صدر المسيحية بل حل الاضطهاد والوحشية محل الحب والتسامح وكانت الفرس تستعمر بلاد العراق، فكان العراق يتحين الفرص ليسترد حريته وضعف سلطان الساسانيين الذى امتد حوالى أربعة قرون، وآل الحكم إلى يزدجرد الثالث آخر ملوكهم، وكان شاباً فى الحادية والعشرين من عمره، قليل التجارب ورث دولة ضعيفة لا يستطيع السير بها فى ركب الحياة.

فى ضوء هذه الاعتبارات قامت الحرب بين المسلمين وبين الفرس والروم، وأذنت دولة الباطل بالخضوع، وقد ساعد هجوم المسلمين على الفرس والروم فى وقت واحد فى الحصول على النهاية الطيبة، وسنرسم فيما يلى سير الحملات الحربية ونذكر أهم المواقع الحاسمة فى إيجاز.

العراق وفارس

جرت المناوشات الأولى بين العرب والفرس فى بلاد العراق على يد المثنى بن حارثة الشيبانى، وكان ذلك فى مطلع عهد أبى بكر وبتكليف من الخليفة ولكن أبا بكر بعد أن شاهد نجاح المثنى مع قلة مامعه من العدة وقلة من معه من العدد أرسل إليه جيشاً عظيماً يقوده سيف الله خالد بن الوليد، وكتب أبو بكر للمثنى يأمره بتلقى خالد والسمع والطاعة له ووصل خالد العراق فأخذت مدنه تصالحه وتخضع إليه وتدفع له الجزية وتعده على أن تكون معه على الفرس وأهم البلاد التى صالحها خالد تبدأ من أرض الحيرة إلى الأنبار التى حاصرها، ولكن مقاومتها لم تطل فطلبت الصلح واستسلمت وكذلك استسلمت «عين التمر» بعد فترة من القتال والحصار وقد وجد خالد فى عين التمر مجموعة من العرب أسرهم الفرس وأودعوهم معبدا فى هذه المدينة فأطلق خالد سراحهم ومن أهم المعارك التى خاضها خالد بفارس موقعة «الأيلة» وتسمى موقعة « ذات السلاسل» لأن الفرس ربطوا جنودهم بالسلاسل حتى لا يفروا من المعركة، ولكن ذلك لم يغنهم شيئاً فقد فر منهم من وجد حيلة للفرار، وسقط الباقون صرعى وقد ترتب على هذه الموقعة الاستيلاء على ميناء الأيلة على الخليج.

وبينما كان خالد فى تقدمه ذاك كانت الحملة على الروم تمر بمرحلة صعبة فحول أبو بكر خالد بن الوليد إلى الروم وبذلك لم يستطع جيش المثنى أن يقف فى وجه الفرس فارتد إلى أطراف الجزيرة العربية.

وفى عهد عمر كانت كفة المسلمين قد رجحت بعد انتصارهم على الروم فى معركة أجنادين فاتجه عمر إلى معاودة الزحف على بلاد الفرس، وفيماً يلى فكرة سريعة عن أهم المعارك الحربية التى دارت بين المسلمين والفرس فى عهد عمر، والتى وضعت حداً لمقاومة الفرس، وأدخلتها إلى الأبد جزء من العالم الإسلامى.

يوم الجسر

حدثت هذه الموقعة سنة ١٣ هـ وكان يقود جيش المسلمين فيها أبو عبيد بن عمر الثقفى أبو المختار بن أبى عبيد المشهور ومعه سليط بن قيس الأنصار، وكتب عمر للمثنى أن يكون فى طاعة أبى عبيد وكان يقود جيش الفرس « قائد داهية» اسمه رستم، وتنسب هذه المعركة إلى جسر عند الحيرة عبره المسلمون والتقوا بجيش الفرس فى هذه المعركة وقتل أبو عبيد وسليط.

يوم مهران أو يوم النخيلة

استمر عمر عاما بعد يوم الجسر لا يغزو بلاد فارس، وفى بداية سنة ١٥ هـ بدأ يعاود غزوها، فأرسل لها جيشاً يقوده جرير بن عبد الله مع المثنى بن حارثة وكان يقود جيش الفرس « قائد اسمه مهران» وقد ثأر المسلمون فى هذه الموقعة لقتلاهم فى يوم الجسر وقُتل مهران وكثير من أتباعه.

موقعة القادسية

حدثت موقعة القادسية فى السنة السادسة عشرة، وكان قائد المسلمين فيها سعد بن أبى وقاص وبلغ جيش المسلمين فيها حوالى عشرة آلاف وكان قائد الفرس رستم ذو الحاجب ويتكون جيشه من مائة وعشرون ألف مقاتل، وقد مات المثنى بن حارثة قبل المعركة ومن القادة الذين كانوا يساعدون سعد بن أبى وقاص المغيرة بن شعبة وقيس بن هبيرة وطليحة بن خويلد الذى كان قد ادعى النبوة ثم تاب وأناب.

ومعركة القادسية من المعارك الهامة فى تاريخ الحروب بين المسلمين والفرس، فر فيها رستم وعشرات الآلاف من جنوده وغنم المسلمون فيها مغانم كثيرة، وقد استمرت هذه المعركة أربعة أيام وكان الانتصار فيها بداية الانتصارات الشاملة على الفرس.

السجين البطل

ومن الأحداث الهامة التى وقعت فى هذه المعركة أن أبا محجن الثقفى أحد مشاهير الأبطال شرب الخمر فى معسكر سعد، فضربه سعد وحبسه ولما قامت

المعركة حزن أبو محجن لأنه لم يشترك فيها.

فتقدم إلى «زبراء» وهى أم ولد لسعد وطلب منها أن تطلق سراحه وتعيره فرساً لسعد ليشهد المعركة وحلف لها أن يعود إلى سجنه عقب المعركة فأطلقته وأعطته الفرس.

ورأى المسلمون فارساً مغواراً يشق الصفوف ويطعن فى العدو يمنة ويسرة فلا تخطئ طعنته، فقال سعد: لولا أن أبا محجن فى السجن لظننت أن هذا هو أبا محجن، وقبيل انتهاء المعركة انسحب أبو محجن وأعاد الفرس إلى مربطه وعاد هو إلى سجنه، وعرف سعد فيما بعد ذلك الخبر، فأتى إلى أبى محجن وأطلق سراحه وقال له: إنك تستحق العفو بعد ما رأيت منك قال أبو محجن: وأنا والله لا أشرب الخمر أبدا، فقد كانت على وشك أن تحرمنى الجهاد.

المدائن

كان انتصار المسلمين فى القادسية دافعاً لهم أن يستمروا فى زحفهم واتجهوا فى تقدمهم إلى القلب ليضربوه، إلى العاصمة طيسنون التى سماها العرب «المدائن» لكثرة ضواحيها التى بدت للعرب كأنها مدائن لا مدينة واحدة وتقع المدائن على ضفتى نهر دجلة واستطاع المسلمون أن يستولوا على الجانب الغربى من المدينة فأسرع الفرس وأخذوا السفن للجانب الشرقى كما هدموا الجسور حتى لا يستطيع العرب عبور النهر، ولكن المسلمين سرعان ماعبروا النهر بخيولهم، فاضطرب الفرس وقالوا: والله ما هؤلاء إلا جن وحاقت عليهم الهزيمة وهرب يزدجرد بن شهريار» ومعه وجهاء قومه وأسرته وماخف من متاعه وسقطت العاصمة الفارسية العريقة فى أيدى المسلمين بما تحويه من فن وذخائر، ولاشك أن سقوط العاصمة أذن بالانهيار الكامل لبلاد الفرس وكان سقوطها فى العام السادس عشر للهجرة.

نهاوند

موقعة نهاوند تسمى فتح الفتوح وقد أورد البلاذرى أنها وقعت سنة ١٩ قال البلاذرى: ويقال أنها وقعت سنة ٢٠و٢١ ويبدو أن نهاوند كانت آخر محاولة جدية يقوم بها يزدجرد، فقد جمع لها جموعاً يرى بعض المؤرخين أنها وصلت

١٠٠ ألف وولى قيادتها قائداً بارعاً يسمى الفيرزان وحرص على ألا يهرب المحاربون فقيدهم بالسلاسل وقد استمات الفرس فى الدفاع والحرب ولكن المسلمين هزموهم، وكان قائد المسلمين فى هذه المعركة نعمان بن مقرن المزنى الذى ولاه عمر بعد سعد بن أبى وقاص وقد سقط النعمان فى مطلع المعركة فتولى مكانه حذيفة بن اليمان وتم على يده النصر وسار المسلمون بعد نهاوند فاستولوا على الأهواز ثم استولوا على قم وكاشان، ودانت لهم كذلك منطقة أذربيجان، وكانت هذه الانتصارات الباهرة سبباً فى إضعاف الروح المعنوية عند الفرس، فاستسلم صلحاً عدد كبير منهم، واستسلم آخرون عنوة، ولم يستطع يزدرجرد أن يقابل المسلمين بعد ذلك مقابلة قوية، وظل أمره فى تدهور حتى قتل بخراسان سنة ٣١ هـ فى عهد عثمان وبموته انتهت دولة (آل ساسان).

الفاروق عمر مع
الصحابة لغزو أعداء الإسلام

كان اهتمام المسلمين بغزو الشام يفوق اهتمامهم بغزو فارس لأن جيوش الروم ناوشت المسلمين قبل الفرس، ولأن الشام ومصر وفلسطين دول محتلة مخلصة للروم، وأمل المسلمون أن يجدوا من الأهلية بعض المساعدة لطرد هؤلاء المستعمرين القساة، ثم إن كثيرين من سكان هذه البلاد تجرى فى عروقهم الدماء العربية وقد جمع أبو بكر جيوشاً عظيمة ووجهها نحو الروم فى فيالق أربعة كبيرة يقودها.

١ ـ أبو عبيدة بن الجراح الذى لقبه الرسول بأمين الأمة ويتجه لغزو حمص وله القيادة العامة.

٢ ـ يزيد بن أبى سفيان ويتجه لغزو دمشق.

٣ ـ شرحبيل بن حسنة ويتجه لغزو وادى الأردن.

٤ ـ عمرو بن العاص ويتجه لغزو فلسطين.

وكان تعداد الجيوش التى سيرت إلى الشام اثنى عشر ألفا ولكنها زيدت إلى أربعة وعشرين ألفاً.

وقد سارت هذه الجيوش كل فى الاتجاه الذى حدد له، ولما علم الروم بخطة العرب قسموا جندهم إلى أربعة أقسام كبيرة ليقاتلوا جيوش المسلمين الزاحفة، وكانت حصون الروم قوية ساعدت على تعويق تقدم المسلمين وقد استطاعت جيوش المسلمين أن تحرز نصراً ملحوظاً كالنصر الباهر الذى حققه عمرو بن العاص فى المعارك التى قام بها على حدود فلسطين، وهناك جيوش أخرى لم تستطع أن تحقق نصراً يذكر أمام الآلاف المحتشدة من جند الروم، وأمام الحصون القوية التى تمطر وابلاً من المقذوفات التى سببت كثيراً من الخسائر للمسلمين وهنا حصل تغيير فى خطة المسلمين إذ وجدوا أن جيوش الروم كثيرة العدة والعدد وأن جيوش المسلمين لن تنال منها ما تريد مادامت متفرقة إلى فيالق أربعة، وعرف الخليفة أبو بكر ذلك فانتهى الأمر إلى:

أولاً: تتوحد جيوش المسلمين لمقابلة الروم.

ثانياً: يتجه خالد بن الوليد من العراق للشام ليساعد جيوش المسلمين ويتولى القيادة العامة وقد دارت بين جيوش المسلمين وجيوش الروم مجموعة كبيرة من المعارك نختار فيما يلى أهمها:

أجنـادين

وقعت موقعة أجنادين سنة ١٣ هـ وكان خالد بن الوليد قائدًا لجيوش المسلمين التى بلغت حوالى ثلاثون ألفاً وكان تيودور أخو هرقل قائداً لجيوش الروم كثير الأسلحة والعتاد، أما جيش المسلمين فكان قليل الأسلحة اللهم إلا الروح المعنوية القوية والثقة الهائلة فى نصر مبين، ودارت رحى الحرب، فخر من جيش الروم أكثر من نصفه، وأسرع الباقون يولون الأدبار وكانت هزيمتهم صاعقة على هرقل الذى لم يتوقع مثل هذه الهزيمة الساحقة ولذلك ترك حمص وهرب منها إلى أنطاكية وهناك بيت من الشعر قوى الدلالة على الرعب الذى ملأ نفوس الروم من بطش المسلمين، وكان يردده جند الروم من العرب وهم يشربون ويغنون وهو:

إلا عللانى قبل جيش أبى بكر   لعل منايانا قريب ولا ندرى

دمشق

أما المعركة الثانية الحاسمة فى بلاد الشام فكانت حول دمشق وقد أحاط المسلمون بالمدينة الجميلة وتحصن الروم بالمدينة وأغلقوا أبوابها، وقد درات مناوشات بين المهاجمين والمدافعين، كما دارت اتصالات بين المسلمين وبعض الأساقفة بالمدينة المحاصرة ودخل المسلمون دمشق من ناحيتين من الباب الشرقى قسراً ومن باب الجابية سلماً على أصح الروايات وكان ذلك سنة ١٤ هـ.

وقد كان أمير جيوش المسلمين وقت حصار دمشق أبو عبيدة، أما خالد فكان عمر قد عزله قبل ذلك بعد معركة أجنادين، عقب وفاة أبى بكر وتولى عمر الخلافة، ومما يذكر بالفخر والإعجاب لسيف الله المسلول خالد بن الوليد أن تلقى خبر عزله برضا وقبول مع أنه كان فى قمة النصر، وأنه استمر يحارب فى جلد وإخلاص تحت إمرة القائد الجديد، وقد سبق أن وقف أبو عبيدة نفس الموقف الرائع عندما طلب منه أبو بكر أن يسلم القيادة العامة لخالد، إنها فى الحقيقة نماذج

إسلامية رائعة ستظل ذكراها عاطرة على مر السنين.

وقد وضح عمر سبب عزل خالد وعزل المثنى بن حارثة بقوله: إنى لم أعزلهما عن ريبة، ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يفتتنوا بهما.

اليرموك

وأعد هرقل العدة إلى لقاء فاصل جمع فيه كل قواه، وقد بلغت جموعه مائتى ألف جندى وتبالغ بعض الروايات العربية فتصل بالرقم إلى مليون أو مليون ونصف، وقاد الجيش جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة والقائد الأرمنى ماهان، وكان جيش المسلمين حوالى أربعة وعشرين ألفاً يقوده أبو عبيدة، ودارت معركة عنيفة بالقرب من نهر اليرموك واستعداداً لهذه المعركة أخلى العرب دمشق وحمص وغيرهما وتراجعوا لتكون المعركة على حافة الصحراء، إذ أن العرب أقدر على المعارك فى مثل هذه البقاع.

وتسلسل جند الروم وأتباعهم لئلا يطمعوا أنفسهم فى الهرب، وقد دارت الدائرة عليهم وفر منهم حوالى سبعين ألفاً، وتشتت الباقون إلى مختلف النواحى، وكانت نساء المسلمين يخضن المعركة مع الرجال ولما بلغ هرقل هزيمة جنده فر من أنطاكية إلى القسطنطينية، ويروى أنه ودع سوريا وداعاً حزيناً فقال: السلام عليك يا سورية، سلام مودع لا يرجو اللقاء. وبعد موقعة اليرموك أنقسم جيش المسلمين قسمين، قسم اتجه إلى الشمال بقيادة أبى عبيدة ومعه خالد بن الوليد، واتجه قسم آخر إلى الجنوب بقيادة عمرو بن العاص وشرحبيل، وبقى يزيد بن أبى سفيان فى منطقة دمشق، ليحمى ماحققه المسلمون من انتصارات بها وقد استطاع أبو عبيدة وخالد أن يستوليا على حمص وحماة وقنسرين واللاذقية وحلب، واستطاع عمرو ابن العاص وشرحبيل أن يستوليا على عكا وحيفا ويافا وغزة وغيرها ولم يبق أمام المسلمين إلا بيت المقدس، وقد دافع عنه الروم دفاعاً شديداً أنزل كثيراً من الخسائر بجنود المسلمين، ولكن جنود المسلمين صبروا، ولعبت السياسة دورها فقد اتصل المسلمون بالمسيحيين ببيت المقدس وكان المسيحيون يعانون المتاعب من حكم الروم كما كان المسلمون يعظمون بيت المشاوارات تدور حوله فهرب إلى مصر، وطلب المسيحيون الصلح على أن يحضر الخليفة بنفسه لتسلم المدينة ويتعهد لسكانها بالحرية الدينية فكتب عمرو إلى عمر بذلك فحضر عمر وكتب بنفسه كتاب الأمان

المسمى « العهدة العمرية» واتجه عمرو بعد ذلك لمقابلة قسطنطين بن هرقل عند قيسارة ولكن عوامل الذعر كانت قد استولت على الأمير الشاب فهرب تاركاً جيشه وسافر إلى القسطنطنية فى ظلام الليل، كما هرب أبوه من قبل من أنطاكية إلى القسطنطينية على أثر هزائم الروم فى اليرموك.

لقد بذل المسلمون آلاف الشهداء فى حروبهم ضد الروم فى سوريا وفلسطين فأصبحت هذه الديار بذلك غالية عليهم فكم لهم من أرواح أزهقت ودماء أريقت.

فتح مصر

ليس بين مصر وفلسطين حدود طبيعية، وفى مصر كما كان فى فلسطين وسوريا جيش الروم، ولن يحس المسلمون بالاستقرار فى سوريا وفلسطين وهناك جيش كبير على مقربة منهم يتبع عدوهم الحانق عليهم، ومن هنا كان الزحف إلى مصر طبيعياً، وكانت مصر تعانى ماعانته سوريا وفلسطين من تعسف الروم وظلمهم وطغيانهم، ثم كانت مصر كالعهد بها دائمة غنية، درة الشرق وأرضها خصبة، ونيلها الخالد ينساب بالخير وعلى جانبيه تمتد الرياض والمزارع الفينانة وعطر سيرتها المجيدة التى تضرب آلاف السنين فى أعماق التاريخ، والاستيلاء على مصر إنما هو ضمان لاستقرار الإسلام فى كل هذه البقاع بآسيا وأفريقيا التى أذنت بالتحرر من سلطة دولة الروم.

ففتح مصر إذن كان عملاً طبيعيا وبدونه ماكانت جيوش المسلمين بفلسطين تنعم بأمن واستقرار وقد أرسل عمر بن الخطاب كتابا إلى أبو عبيدة يقول فيه «إذا قرأت كتابى فأمر عمرو بن العاص أن يتوجه إلى مصر بعسكره فسار عمرو مخترقاً صحراء سيناء حتى وصل إلى العريش فاستولى عليها دون مقاومة تذكر، ثم سار حتى وصل الفرما وقد حاصرها بجيشه أكثر من شهر ولعب الأقباط المصريون دوراً هاماً فى مساعدة المسلمين ضد الروم حتى سقطت الفرما فى يد المسلمين سنة١٩هـ . وتقدم المسلمون إلى بلبيس، وكان بها جيش كبير يقوده أرطبون الذى فر من بيت المقدس، وقد دار قتال كبير حول بلبيس استمر مدة شهر قضى فيه المسلمون على قوة الروم وتسلموا المدينة ويقال أنه كان بها ابنة المقوقس وهو الحاكم المصرى الذى عينه قيصر الروم ليحكم البلاد باسمه ولما استولى عمرو على

بلبيس أكرم ابنة المقوقس وأرسلها معززة مكرمة إلى أبيها، وكانت تلك سياسة رشيدة ساعدت على تقوية العلاقة بين العرب والمصريين.

وسار جيش المسلمين إلى أم دنين (المقس) ودار حولها قتال عنيف لم يستطع المسلمون الفوز فيه، فأرسل عمرو يطلب عوناً من الخليفة فأرسل له الخليفة أربعة آلاف فيهم الزبير وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود وكتب له بقوله: « قد أمددتك بأربعة آلاف فيهم رجال الواحد منهم بألف رجل» والتقى جيش المسلمين بجيش الروم وكان تعداده عشرين ألفاً يقوده « تيودور» وجرت المعركة عند عين شمس وقد هُزم فيها جيش الروم هزيمة منكرة بسبب التقسيم الرائع الذى اقترحه عمرو، إذ قسم جيشه ثلاثة أقسام كبيرة قابل الروم بقسم منها، وفى أثناء المعركة هجم القسم الثانى من جهة وهجم القسم الثالث من جهة المقابلة فحوصر جيش الروم واختل نظامه وكثرت الضحايا وفر من فر إلى حصن بابليون وواصل المسلمون انتصاراتهم فى معارك حصن بابليون والإسكندرية وأصبحت مصر تابعة للخلافة الإسلامية.

الغالبون والمغلوبون

هل كان الفتح الإسلامى انتصاراً للعرب وهزيمة للفرس والسوريين والمصريين؟ لعل أدق إجابة هى تلك التى يذكرها الدكتور جتى فى كتابه « تاريخ العرب» وهى « كان السوريون والمصريون يعتبرون العرب الفاتحين قوماً من بنى جنسهم يربطهم بهم مالا يربطهم بأولئك الحكام السابقين الذين كانوا من الأجانب الغاصبين، فالفتوحات الإسلامية من هذه الوجهة هى عند التحقيق انقلاب « اجتماعى سياسى استرد به الشرق الأدنى مجده السامى الغابر» ويمكن القول أن الفرس والعراقيين والمصريين والسوريين رأوا فى الإسلام متنفساً وسماحة أنقذتهم من الطغيان والإكراه والاستغلال التى عاشوا تحت ضغطها مدة طويلة، لقد ضمن الإسلام لهم حرية الأديان، وأغناهم من الأعمال العسكرية نظير دفع جزية ضئيلة إلا من شاء أن يدخل صفوف المدافعين عن البلاد فله أن يدخل ويعفى من الجزية مع بقائه على دينه،وترك المسلمون الأرض للمصريين والسوريين والعراقيين والفرس على أن يدفعوا خراجها وهو أقل بكثير مما كان يأخذه الأكاسرة والقياصرة الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ملاكاً للأرض ولرقيق الأرض وأمَّن المسلمون الأهالى

على أموالهم ونسائهم وأولادهم، ورأى الأهلون فى المسلمين المساواة التى كانوا لا يحلمون بها وقام المسلمون بكثير من الإصلاحات التى تتصل بالقضاء والشرطة والطرق والرى والهندسة والجسور وكان القانون الإسلامى يسرى على المسلمين أما غير المسلمين فقد ترك الفصل فى شؤونهم للقانون المدنى الذى كان معمولاً به قبل الفتح الإسلامى، وترك أمر تنفيذه لرؤساؤهم الدينيين.

وفى الوقت نفسه قام الدعاة والفقهاء يتحدثون عن الإسلام ومبادئه، فلا عجب أن أقبل أهل هذه البلاد على الإسلام يعتنقونه ويدينون به، فأخذ الإسلام ينتشر رويدًا رويدًا، وأخذت اللغة العربية أيضا تنتشر حتى كان رجال الكنيسة القبطية فى القرن العاشر يضعون كتابتهم باللغة العربية لكى يفهمها أتباعهم.

عمر بانى الدولة الإسلامية

كانت المهمة الأولى لرسول الله ﷺ هى تبليغ الرسالة، وتعليم المسلمين مافيه خير لدينهم ولدنياهم، وقد قام الرسول صلوات الله عليه وسلامه بتبليغ الرسالة خير قيام، ووضع للمسلمين أسس حياة سامية، وحل كل المشكلات التى بدت لهم فى عهده ولكن الإسلام لم يتجاوز جزيرة العرب فى حياة الرسول وحياة العرب بطبيعتها سهلة بسيطة، فلما امتد الإسلام إلى الشام ومصر والفرس واتصل الإسلام بحضارات هذه البلاد، قابل الإسلام ظروفاً جديدة، وظهرت مشكلات لم يكن للمسلمين بها عهد، ولم تتضح هذه المشكلات بطبيعة الحال فى عهد أبى بكر، فقد كان عهده قصيراً وتوفى رضى الله عنه والنصر لم يكتمل بعد فى الحروب الدائرة بين المسلمين وبين الفرس والروم، بل إنه قد رحل والحروب مع هؤلاء فى مطلعها، ومن ثم فعبء المشكلات الجديدة وقع على عاتق الخليفة العظيم عمر بن الخطاب، وكان عمر ملهمًا، فوفق أيما توفيق فى الاستجابة للحياة الجديدة، وفى بناء الدولة الإسلامية، فهو الذى أنشأ الدواوين، وأنشأ بيت المال، وصك النقود، وأسس جيشاً دائماً للدفاع ولحماية الحدود ونظم المرتبات، وعين الولاة والقضاة، ورتب البريد وأنشأ نظام الحسبة، وثبت الهجرة لتكون مبدأ للتاريخ عند المسلمين، بحيث لا يترك التاريخ بها إلى أى حادث آخر قد يجىء.

ولم يكتف عمر باستنباط مادعت له الضرورة من نظم، بل عدل فيما وضع من قبل عندما ظهرت ضرورة للتعديل، فهو الذى قرر أن تبقى الأرض المفتوحة

فى أيدى أصحابها واقترح لذلك نظام الخراج وكان المفروض أن يستولى المحاربون على ما فتحوه عنوة وغير ذلك من الأشياء.

لقد ملأ محمداً ﷺ الدنيا نوراً بدين الإسلام وأوشك هذا النور أن يخبو بعد وفاته فى خضم الأحداث العاتية فحفظته همة أبى بكر ثم جاء عمر فزين البناء الشامخ وأمده بأروع النظم وأحسنها، ولازال العالم الإسلامى يعيش حتى اليوم وأعظم النور الذى يستمتع به مصدره الرسول الكريم وصاحباه العظيمان.

مقتل عمر

قتل عمر بن الخطاب فى مؤامرة دبرها بعض أعداء الإسلام من الفرس واليهود ونفذها رجل فارسى اسمه أبو لؤلؤة، ومن الواضح أن عمر أزال ملك الفرس وقضى على سلطانهم ولهذا كانت الطبقة العليا من الفرس هى وأتباعها تحقد على عمر وتتمنى التخلص منه، وكان يساعدهم بعض اليهود من بقايا أسرى بابل الذين لم يعودوا إلى فلسطين عندما سمح لهم بالعودة.

وقد تسلل القاتل إلى المسجد وعمر يبدأ فى صلاة الفجر، ولم ينتشر الضوء بعد، فطعن الخليفة بخنجر عدة طعنات وصاح عمر واتجه المسلمون للقبض على القاتل فانهال عليهم طعنا حتى قتل وجرح عدداً منهم ثم تكاثر عليه المسلمون وقبضوا عليه ولكنه تمكن من طعن نفسه وانتحر.

ورحل الخليفة الراشد العظيم بعد ذلك بفترة قصيرة تاركاً أعظم الذكريات ومخلفاً مسيرة من أعظم السير التى يرويها التاريخ.



[٣]

ذو النورين « عثمان بن عفان»

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، وجدته لأمه البيضاء بنت عبد المطلب فهى عمة الرسول ﷺ، وكانت توأم عبد الله والد الرسول.

ولد بالطائف ٥٧٧م أى فى السنة السادسة بعد عام الفيل، وذلك حوالى السنة السادسة بعد ولادة الرسول.

وعثمان يسمى « ذو النورين» لأنه تزوج بنتين من بنات الرسول رقية أولاً فلما ماتت تزوج أختها أم كلثوم ويروى أن هذه لما ماتت فى السنة التاسعة للهجرة قال له رسول الله: لو أن لنا ثالثة لزوجناك وتلك شهادة عملية بمكانة عثمان رضى الله عنه عند الرسول صلوات الله عليه.

ومع هذه الشهادة العملية هناك شهادة قولية، فيروى أن الرسول رأى فى مرة فيضاً من فيوضات عثمان فى السخاء والكرم عند الحاجة، فقال: ماضر عثمان ماصنع بعد اليوم، اللهم أرض عن عثمان فإنى عنه راض.

وفى مناسبة أخرى قال عليه الصلاة والسلام: لكل نبى رفيق ورفيقى فى الجنة عثمان. وكان عثمان رجلاً ربعة أى ليس بالطويل ولا بالقصير وكان حسن الوجه أميل إلى السمرة كبير اللحية غزير الشعر.

وكان معروف بدماثة الخلق ورقة الطبع، وصفاء النفس كما كان جواداً، كثير التواضع، جم الحياء.

إسلام عثمان

دخل عثمان الإسلام مع السابقين الأولين ويروى أنه أحد الخمسة أو السبعة الذين كانوا أول من دخل الإسلام، فقد دعاه أبو بكر قائلاً ياعثمان أنت رجل عاقل وماترى فى هذه الآلهة التى يعبدها قومنا أليست من حجارة لاتعقل ولا تسمع ولا تبصر؟

فأجاب عثمان: نعم يا أبا بكر هيا بنا إلى محمد فإنى أريد أن أسمع مايقول وما أن تم لقاء بينه وبين الرسول عليه صلوات الله حتى قال: أشهد أن لا إله إلا الله وإنك رسول الله.

وإسلام عثمان تصرف جرىء فعثمان كان من كبار التجار وكبار الأثرياء ومعنى إسلامه أن تجارته لن تواصل نشاطها فإن قريشاً ستوقف التعامل معه ثم إن إسلامه جعله يهاجر للحبشة فى وقت مبكر كما سنرى ومعنى ذلك حرمانه من مظاهر الثراء التى ألفها ولكن الإيمان كان عنده أسمى من كل ترف فى هذه الحياة.

ثم إن عثمان أحد أفراد أسرة بنى أمية بن عبد شمس، وهؤلاء وقفوا موقف المنافسة والمصارعة مع أبناء عمهم من بنى هاشم أسرة الرسول فإسلام عثمان خروج على الإجماع القبلى الذى كان الكثيرون يحرصون عليه، ويتضح لنا الفرق الكبير بين عثمان وبين بنى أمية عندما تدرك أن عثمان أسلم فى السنة الأولى للبعثة وأما بنو أمية فلم يدخلوا الإسلام إلا بعد إحدى وعشرين سنة من ذلك التاريخ أى عند فتح مكة، وعندما لم يبق لهم خيار.

وهذا يوضح لنا صفاء نفس عثمان الذى آثر العقيدة على المال وعلى الحياة وقد عانى عثمان كثيراً من الاضطهاد بسبب إسلامه فإن عمه الحكم غضب عليه وأوثق رباطه، وهدده، ولكن عثمان ثبت ولم يتزعزع فاضطر لإطلاق سراحه.

هجرته إلى الحبشة

يمكن القول أن عثمان نال نصيباً كبيراً من الإيذاء عقب دخوله الإسلام، لأن قومه أنكروا عليه ذلك، ولأنه كان فيه ميل للدعة والسلام فلم يقف موقف الصراع مع المعتدين، ولهذا آثر عثمان الهجرة للحبشة مع ما يجره هذا عليه من حرمان مما يملك ومن كساد لتجارته وكان عثمان عند الهجرة للحبشة متزوجاً من رقية بنت الرسول وخرجت رقية مهاجرة معه، وهذا يوضح لنا لوناً من معاناة الرسول، إذ تهاجر ابنته بعيداً عنه إلى ذلك المجهول الذى لا يعرف مداه وقد عاد عثمان وزوجته من الحبشة بعد فترة عندما بلغهم إسلام عمر بن الخطاب ومجاهرته بالإسلام وهاجر عثمان إلى المدينة عندما انتشر الإسلام بها، وترك إلى الأبد قصوره الفخمة وثراءه العريض، وقنع بما استطاع حمله من هذا المال، وهو بلاشك قليل إذا قيس بما كان يملك قبل الإسلام، وفى المدينة استأنف نشاطه التجارى من

جديد، واتجه للتجارة فى المحاصيل الزراعية والفاكهة، فكان يشترى ثمار البساتين بالجملة ثم يبيعها لتجار الفاكهة أو المستهلكين، وامتد نشاطه إلى الشام وقد ضمنت له خبراته التجارية ثراء عظيماً عوضه عما فقد بمكة، فبنى لنفسه داراً فسيحة بالحجر والكلس، وامتلك الأموال والجنان والعيون، وكان إذا حج ضرب فسطاط بمنى، وكان يأكل ألين الطعام وأطيبه ويلبس أفخر الثياب، وبالجملة فقد سخا على نفسه، كما سخا على الناس، وسنرى فيما بعد صوراً من سخائه وكرمه.

سفير المسلمين

عندما تأزمت الأمور فى الحديبية، أخذ الرسول الزمام وقرر أن يرسل الرسل إلى قريش ليشرحوا لهم اتجاه المسلمين إلى المسالمة وأنهم لا ينوون إلا العمرة، وقد أشار عمر بن الخطاب على الرسول أن يختار عثمان لهذه المهمة وذهب عثمان، وبدأ يشرح لقريش أهداف المسلمين، فقال له زعماء قريش: إن شئت أن تطوف بالبيت فلك أن تفعل، فأجاب: والله ماكنت لأطوف بالبيت ورسول الله والمسلمون ممنوعون من ذلك وطالت بمكة غيبة عثمان أكثر مما توقع المسلمون، وأشيع أنه قتل، فأدرك المسلمون أن لابد من القتال وتمت بيعة الرضوان.

ولكن عثمان سرعان ماعاد بعد أن نجح فى تهدئة قريش، والقضاء على مخاوفهم وبعد أن ألان جانبهم نحو المسلمين.

توليه الخلافة

عندما طعن عمر لم يكن فى نيته أن يولى خلفاً له، فالظروف التى دعت أبا بكر أن يعين خلفاً له قد زالت إذ انتصرت جيوش المسلمين واستقرت الأحوال، ولكن المسلمين خافوا الفرقة بعد موت الخليفة فعرضوا على عمر أن يعين خلفه وقد أثر عنه قوله: إن استخلف فقد استخلف من هو خير منى(يقصد أبا بكر) وإن أترك فقد ترك من هو خير منى(يقصد الرسول صلوات الله عليه) فأاقترح عمر طريقاً وسطاً بين التعيين وعدم التعيين، فعين الستة المبشرون بالجنة، وهم خيرة المسلمين ولن يكون الخليفة بطبيعة الحال إلا واحداً منهم، وطلب منهم أن يختاروا من بينهم الخليفة بعد استشارة المسلمين وهؤلاء الستة هم: عثمان ـ على ابن أبى طالب ـ طلحة بن عبيد الله ـ الزبير بن العوام ـ سعد بن أبى وقاص ـ عبدالرحمن ابن عوف.

وضم عمر إليهم ابنه عبد الله ليكون له رأى فى الاختيار على ألا يختار للخلافة وحدد عمر ثلاثة أيام تنتهى المشاورة خلالها.

ومات عمر واجتمع هؤلاء للمشاورة فاقترح عبد الرحمن بن عوف أن يخرج أحدهم نفسه ويتولى الذى يخرج مشاورة الناس واختيار الخليفة من بين الخمسة الآخرين، فقبلوا ذلك المبدأ، ثم عرض عليهم استعداده ليكون هو ذلك الشخص فقبلوا، وعاهدوه على ذلك، وعاهدهم على الحق والعدل واستشار عبد الرحمن الخاصة والعامة واستشار المرشحين، فوجد أن الإجماع يكاد يكون منعقداً على عثمان أو على بن أبى طالب فانحصرت الخلافة بينهما فاختار عثمان لكبر سنه وسهولة طبعه.

سياسة عثمان

إن الدارس لتاريخ عثمان رضى الله عنه يرى أن سياسته فى الحكم كانت تتجه إلى اللين والعظة وليست للحسم والحزم والتخويف كما كانت سياسة أبى بكر وعمر، ويمكن أن نلحظ علامات هذه السياسة من خطابه الذى بدأ به خلافته قال رضى الله عنه:

«إنكم فى دار الزوال لا فى دار البقاء، وفى بقية أعمار (أى تقدمت بكم الأعمار) فبادروا بخير ماتقدرون عليه، وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم هذه الحياة، واعتبروا بمن مضى، أين الذين عمروا الأرض ونالوا منها؟ ألم يأتوا إلى نهاية؟ لا تغفلوا عن الواجب فإنه لا يغفل عنكم.. ارموا الدنيا واطلبوا الآخرة».

وأرسل إلى ولاته خطاباً جاء فيه: إن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق، الأمانة الأمانة، قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها، فتكونوا شركاء لمن ينهج هذا المنهج من بعدكم، الوفاء الوفاء لاتظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم وأن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، وأن لا يحرصوا على أن يكونوا جباة، وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين، فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تنظروا لأهل الذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم وكما اتجه عثمان فى سياسته للرفق واللين، اتجه للتوسعة على المسلمين، فقد زاد فى الأعطيات وأطلق للمسلمين حرية التمتع بالنعيم الحلال، ليشكروا الله على ما رزقهم من نعم، وأباح للصحابة أن ينتشروا فى البلاد، رجاء أن يقوموا

بالدعوة إلى الله، وأن يستفيدوا من الاتصال بالحضارات الأخرى، وكان عمر رضى الله عنه قد منع الصحابة من مغادرة المدينة.

نسخ عدة نسخ من القرآن

يروى أن حذيفة بن اليمان، عاد إلى المدينة فى عهد عثمان، بعد أن اشترك فى الفتوحات الإسلامية بعدة بلاد، وقد فزع حذيفة عندما رأى اختلافات الناس هنا وهناك فى قراءة القرآن الكريم، فجاء إلى عثمان وقال له: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة، قبل أن يختلفوا فى كتاب الله كما اختلف اليهود والنصارى.

فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر يطلب أن ترسل إليه المصحف الذى كان قد دون فى عهد أبى بكر لكتابة عدة نسخ منه للأقطار المختلفة، على أن يعيد الأصل إلى حفصة بعد ذلك.

وتسلم عثمان المصحف من حفصة وجمع مجموعة من القراء هم: زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وطلب منهم أن يكتبوا عدة نسخ من هذا المصحف ولما تم ذلك أرسل عثمان نسخة إلى كل من البصرة والكوفة والشام ومكة، وخصص نسخة لأهل المدينة، وأبقى نسخة لنفسه .

وعثمان بذلك قد خدم الذكر الحكيم أجل خدمة وجمع الناس على قراءة واحدة، هى ماورد بهذا المصحف الشريف وأمرهم بحرق ما سواه من صحف أو كتابات.

ذو النورين قبل الإسلام وبعده

إن الدارس لحياة عثمان قبل الإسلام وبعده، وقبل أن يتولى الخلافة، وبعد أن تولاها يجد صورة مشرقة لمسلم اجتمعت فيه أسمى الصفات وأرقى السجايا، وسنورد فيما يلى خلاصة لصفات عثمان رضى الله عنه.

وأول ما نذكره أن عثمان لم يشرب خمراً فى الجاهلية وكان يرى حتى قبل الإسلام أنها تذهب العقل، والعقل أسمى مامنحه الله للإنسان، وعلى الإنسان أن يسمو به لا أن يصارعه، وفى الجاهلية كذلك لم تجذبه أغانى الشباب، ولا حلقات اللهو، ثم إن عثمان كان يتعفف على أن يرى عورة.

ومن أطرف مايروى عن حب الناس لعثمان لما كان فيه من صفات الخير، أن المرأة العربية فى عصره كانت تغنى لطفلها أغنية تحمل تقدير الناس له وثناءهم عليه، ومن الكلمات المأثورة لهذه الأغانى ما يلى:

أحبك والرحمان حب قريش لعثمان.

وقد وصفه الرسولﷺ أدق وصف حينما قال: أصدق أمتى حياء عثمان[1].

وهناك رواية رواها الإمام مسلم توضح قدر حياء عثمان، والرواية عن السيدة عائشة أم المؤمنين، وهى تقول: كان الرسول مرة مضطجعاً فى بيتى، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال، ودخل أبو بكر وتحدث مع الرسول ثم خرج ثم استأذن عمر، فأذن له الرسول وهو على حاله تلك ودخل عمر، فتحدث مع الرسول ثم خرج، ثم استأذن عثمان، فاعتدل الرسول من مضجعه، وسوى ثيابه وأذن لعثمان فسألت الرسول عن ذلك فقال: إن عثمان رجل حيى، وإنى خشيت أن وجدنى على حالى من الراحة والاضطجاع ألا يبلغ حاجته وألا يأخذ حظه من الحديث إلى، فاعتدلت إليه لأعطيه فرصة الهدوء والاستقرار.

والحديث عن كرم عثمان واسع ولدينا نماذج رائعة من هذا الكرم الفياض، ونكتفى بأن تقتبس هنا بعضها.

بئر رؤمة

عندما هاجر الرسول إلى المدينة قابلته مشاكل اقتصادية متعددة وكان من بينها مشكلة الحصول على الماء، إذ كانوا يحصلون عليه من بئر اسمها (بئر رؤمة) وهى بئر يملكها رجل يهودى جشع، يبالغ فى رفع أسعار المياه.

وتمنى المسلمون أن تصبح هذه البئر ملكاً لمسلم ييسر لهم الحصول على الماء بدون ثمن، واتصل عثمان باليهودى يساومه فى شراء البئر ورفض اليهودى حرصاً على ما يتقاضاه من أثمان، فعرض عليه عثمان أن يشترى نصف البئر أى أن تكون البئر لعثمان يوماً ولليهودى يوماً آخر وضاعف عثمان الثمن، فقبل اليهودى بسبب رفع الثمن ولأن البئر سيكون له نصفها فيكسب من بيع الماء فى نوبته.

وتمت الصفقة على هذا الأساس واتجه المسلمون إلى أن يأخذوا من البئر الماء

(١) رواه الترمذى وقال: حسن صحيح.

ليومهم ولغدهم، فلما جاء يوم اليهودى لم يحضر أحد لشراء الماء منه، فباع النصف الثانى لعثمان بثمن عادى لم تكن فيه المبالغة ولا التردد كما الحال بالنسبة للنصف الأول.

وهكذا كان عثمان سخياً وذكياً فى شراءه، ووهب عثمان هذه البئر للمسلمين ليأخذوا منها الماء بدون مقابل.

توسيع المساجد

وعندما كثر عدد المسلمين ضاق بهم المسجد الذى بناه الرسول ﷺ عند قدومه للمدينة وكان الرسول يتمنى أن يتسع المسجد ليضم كل المسلمين الذين يحضرون الصلاة، فتقدم عثمان واشترى المكان الملاصق للمسجد وضمه إليه وحسن بناء وزين جدرانه، وحدث مثل ذلك بالنسبة للمسجد الحرام بمكة عقب فتح مكة فقد اشترى عثمان بيتاً ملاصقاً للمسجد الحرام وضم مساحته إليه.

مع جيش العسرة

وفى غزوة تبوك، عندما هدد الروم أرض الإسلام، كان الوقت شديد الحرارة، ووقت حصاد، لا يرغب الناس فيه فى ترك مزارعهم وأرضهم، وكان المسلمون يعانون بعض المتاعب الاقتصادية، وقد سمى القرآن الكريم هذه الفترة «ساعة العسرة». . فى هذا الوقت دعا الرسول المسلمين للمساعدة فى إعداد الجيش الذى سمى جيش العسرة، فتقدم المسلمون كل بما يستطيع، وكان عثمان بن عفان من أهم من سخا واحتسب فى هذه الغزوة، فيروى أنه كان قد جهز عيراً عددها مائتا بعير تحمل تجارته إلى الشام ولكنه عدل مسارها، فأرسلها إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه بما تحمله من سلع، مساعدة فى هذه الغزوة الحاسمة، كما قدم قدراً كبيراً من الذهب، والطعام والمؤن، وبعض الخيول، فكان بذلك دعامة قوية فى هذه الغزوة.

من جاء بالحسنة

وفى عهد أبى بكر أصاب الناس قحط، فلما اشتد بهم الأمر ذهبوا إلى أبى بكر وقالوا ياخليفة رسول الله إن السماء لم تمطر، والأرض لم تنبت، وقد توقع الناس الهلاك فماذا نصنع؟ فقال لهم: انصرفوا واصبروا، فإنى أرجوا أن يفرج

الله عنكم حالاً.

وفى أصيل ذلك اليوم ورد الخبر بأن عيراً لعثان بن عفان قد قدمت من الشام، وستصل صباحاً، فلما جاءت خرج الناس يتلقونها، فإذا هى ألف عير تحمل براً وزيتاً وزبيباً، فأناخت بباب عثمان، فلما جعل أحمالها فى داره جاءه التجار وجرت بينهم وبينه الحادثة التالية:

التجار: نريد أن نشترى من هذا الذى وصل إليك، فإنك تعلم حاجة الناس إليه.

عثمان: حباً وكرامة. . . كم تربحوننى على شرائى؟

التجار: الدرهم درهمين.

عثمان: أعطيت زيادة على هذا.

التجار: أربعة.

عثمان: أعطيت أكثر.

التجار: نربحك خمسة.

عثمان: أعطيت أكثر.

التجار:

ما فى المدينة تجار غيرنا، وما سبقنا أحد إليك فمن الذى أعطاك أكثر مما أعطينا؟

عثمان: أعطانى الذى يقول: ﴿**من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها**﴾

فهل عندكم زيادة عن العشرة؟

التجار: لا.

عثمان: إنى أشهد الله أنى جعلت ما حملت هذه البعير صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين، ثم أخذ يفرق بضاعته، فما بقى من فقراء المدينة أحد إلا أخذ ما يكفيه ويكفى أهله.

مهر فاطمة الزهراء

من المعروف أن الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه لم يكترث بالمال،

ولم يسع لجمعه واتجه إلى الزهد فى متاع الدنيا، والحرص على نعيم الآخرة، ولكنه احتاج إلى المال، عند زواجه من أشرف نساء الأرض، من السيدة فاطمة بنت الرسول صلوات الله عليه، وكان لابد من دفع مهر، وكل شيء يهون أمام مهر السيدة فاطمة.

فذهب الإمام على إلى أعز ما يملك ليبيعه، ويدفع المهر اللازم، لجأ إلى سيفه فذهب به إلى عثمان رضى الله عنه، وعرضه عليه، وكان عثمان سخياً، فحدد للسيف ثمنا يتناسب مع مهر فاطمة الزهراء أكثر من تناسبه مع قيمة السيف نفسه، وتمت الصفقة، وسلم على سيفه لعثمان وأخذ ثمنه.

وبدأ يتحرك بالثمن وهو سعيد مغتبط، ولكن عثمان ناداه، فلما عاد علىّ إليه سأله عثمان: أليس هذا المال مهراً لعروسك بنت الرسول ﷺ؟ فقال علىّ: بلى فقال عثمان: يسعدنى أن أقدم لك هذا السيف هدية فى هذه المناسبة الطيبة.

وهكذا دفع عثمان مهر السيدة فاطمة بطريق غير مباشر، طريق ينبئ عن كرم وعفة نفس، وسماحة خلق.

الحركات العسكرية
فى عهد عثمان

تتلخص الحركات العسكرية فى عهد عثمان فى ناحيتين:

١ - القضـــاء على التمرد والثورات التى قامت فى بعض النواحى التى دخلها الإسلام فى عهد عمر، وبخاصة فى خراسان وكذلك القضاء على محاولة الروم للعودة إلى الإسكندرية.

٢ - استمرار التوسع الإسلامى فى الميادين المختلفة التى انتهى عندها التوسع فى عهد عمر، وقد شمل هذا التوسع كل الميادين التى كانت الجيوش الإسلامية قد وصلت إليها فى عهد عمر، وعلى هذا فقد انضم للدولة الإسلامية برقة وطرابلس غرب مصر، كما انضم لها جزء من بلاد النوبة فى الجنوب، ومناطق أخرى فى طبرستان وفى الميدان الشرقى.

البحرية

قبل خلافة عثمان لم يكن للمسلمين عهد بركوب البحار، وعندما تم فتح

مصر بعث عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص يطلب منه أن يبنى للعسكر مدينة ليس بينها وبين المدينة المنورة أنهار وبحار، فبنيت الفسطاط، ومن هنا نجد أنه عندما جاء عهد عثمان لم يكن لدى المسلمين مراكب حربية، ولا خبرة بالأساطيل ولكن أمراء عثمان فى الشام ومصر شكوا له ما يعانونه من الجيوش الرومية التى تتجمع أساطيلها فى جزر البحر الأبيض المتوسط وتهاجم الساحل الإسلامى على طول حدوده البحرية.

ورأى عثمان أن تكوين بحرية إسلامية أصبح شيئا ضرورياً وأنه الوسيلة الوحيدة لحماية الشواطئ الإسلامية الطويلة وأنه، كذلك الوسلية الضرورية للهجوم على تجمعات الأعداء فى جزر البحر المتوسط، قبل أن تنقض على المسلمين.

وأنشأ عثمان بحرية قوية ولكنه اشترط ألا يركب البحر للقتال إلا من تطوع لذلك دون إكراه لأحد وسرعان ما اعتاد المسلمون ركوب البحر، والقتال باستخدام البحرية الإسلامية التى حققت كثيراً من النجاح.

وعن طريق البحرية الإسلامية دخلت قبرص إطار الدولة الإسلامية وقد قام بغزوها معاوية بن أبى سفيان سنة٢٨هـ، ومن أهم المواقع البحرية موقعة ذات السوارى أو ذات الصوارى. وقد حدثت سنة ٣١هـ فى البحر الأبيض المتوسط بالقرب من الإسكندرية بين جيش الروم بقيادة قسطنطين وبين عبدالله بن أبى سرح والى مصر، وسميت «ذات السوارى» نسبة إلى سوارى البواخر التى اشتركت فيها ألف سفينة منها مائتان للمسلمين والباقى للروم وقد انتصر المسلمون فى هذه الموقعة.

الفتنة التى أدت إلى قتل عثمان

إن دراسة الفتنة التى أدت إلى قتل عثمان رضى الله عنه عمل واسع، خصه كثير من الباحثين بداراسات مستقلة، وسنحاول هنا إيجاز الموضوع فى غير إهمال: من الواضح أن بنى أمية كانوا فى مطلع الإسلام أعداء هذا الدين، وهم الذين قادوا الجيوش عدة مرات للقضاء عليه، ثم أسلم بنو امية ودخلوا الاسلام عند فتح مكة، ولما مات الرسول ﷺ لم يطمع بنو أمية فى الخلافة لقرب عهدهم بالإسلام ولموقفهم العدائى منه مدة طويلة ولكن الأحداث التى مر بها الإسلام

خلال خلافة أبى بكر وعمر أتاحت الفرصة لبنى أمية ليعوضوا ما فاتهم، فلمعت أسماء قادة مغاوير منهم فى حروب الردة والمتنبئين وفى الحروب ضد الفرس والروم، ومن هؤلاء يزيد بن أبى سفيان ومعاوية وهند أم معاوية التى كانت تخوض مع الرجال موقعة اليرموك، وبهذا استعاد بنو أمية مكانتهم، وبالتالى طمعوا فى الحصول على الخلافة.

وعندما مات عمر كانت هناك اسرتان كبيرتان تطمعان فى هذه الخلافة، هما أسرة بنى هاشم وأسرة بنى أمية، وانتهت المشورة بعد موت عمر كما قدمنا إلى واحد من اثنين عثمان أو على ولكن شدة عمر وصرامته جعلت الناس يرغبون عن على حتى لا تمتد الشدة والصرامة ومالوا إلى عثمان حيث الدعة واليسر والتسامح، وأسند الأمر إلى عثمان.

واتجه عثمان فى خلافته اتجاهات يمكن أن نجعلها ذات شقين فشق منها يتصل بسياسته من ناحية الحكم، وشق يتصل بسياسته الاقتصادية.

أما فلسفة عثمان فيما يتعلق بالحكم فيمكن تلخيصها فى أن سن عثمان كانت متقدمة عندما تولى الخلافة، ولذلك كان أكثر من أبى بكر وعمر حاجة لمن يساعده فى حمل أعباء الحكم، ثم إن عثمان من أسرة كبيرة، ولكثيرين من أفراد أسرته مكانة مرموقة فى الحياة العربية والإسلامية، وكان منهم قادة وأمراء من قبل عهد عثمان من أجل هذا كثر الولاة والقادة من أسرة عثمان، فلما ظهر سخط الناس على ذلك أراد أن يتحقق من كفاءة ولاته، . وحسن تصرفاتهم، فاختار مجموعة من خيرة الصحابة ليكونوا مبعوثين له فى البلاد المختلفة، وليقدموا لهم تقاريرهم عما يرون، فاختار محمد بن مسلمة للكوفة، وأسامة بن زيد للبصرة، وعبدالله بن عمر للشام، وعمار بن ياسر لمصر، وعاد هؤلاء المبعوثون ما عدا عمار بن ياسر وقدم هؤلاء تقاريرهم إلى عثمان. عن البلدان التى أوفدوا إليها، وليس فيها خطأ واحد من ولاة عثمان يستحق المؤاخذة. تلك هى اتجاهات عثمان فى ناحية الحكم، ميل لتولية أقاربه لثقته فيهم، ولأمن جانبهم، واطمئنانه على مساعدتهم، مع التأكيد على كفاءتهم وحسن تدبيرهم للأمور، أما سياسته الاقتصادية فيمكن القول بأن عثمان كان قبل الخلافة غنياً جداً، وسمحاً جداً، وكان يعيش فى رخاء وكان مبسوط اليد، لا يعرف البخل طريقه إليه وكان يملك ما يوسع به على نفسه وما يعطيه للآخرين وقد أفنى ماله كله فى الإنفاق والعطاء

فى سبيل الله أما بعد الخلافة، فرغم ما آثاره رؤوس الفتنة من أنه كان يعطى الهبات لأقاربه ويترخص فى العطاء وبذل الرواتب من بيت المال فلم يثبت أنه أنفق المال فى غير مصالح الأمة وثبت على التحقيق أنه أنفق من ماله الخاص بعد الخلافة لاستصلاح أمور عامة من خصائص بيت المال وقد تحرج أشد الحرج من إنفاق المال على حرس يحميه فى أسوأ أيام الفتنة وكانت له سياسة اقتصادية، يلاحظ فيها تدبير المرافق العامة وتيسير التجارة والعمارة ومنها إصلاح ميناء جدة وتمهيد الطرق وإقامة الشرطة فى المخافر وتنظيم الأسواق.

وبدأ الهمس بادعاء أن انحرافاً حدث فى تصرفات عثمان السياسية والاقتصادية وبعد فترة ارتفع الهمس إلى صخب وبدأت الفتنة تطل وتكشف عن أنيابها، ومن الواضح أنه كان من السهل ومن الممكن أن يسحق عثمان هذه الفتنة، وأن يقضى على هذه الثورة، فقد كانت لديه الجيوش التى حققت ألواناً من النصر فى البر والبحر، وكان حوله بنى أمية وهم أصحاب قوة وبأس وكان حوله الأنصار الذين كانوا مستعدين كما قالوا أن يكونوا أنصار الله مرتين، ولكن عثمان رفض استعمال القوة ولم يشأ أن يريق الدماء، وعندما أشار عليه المغيرة بن شعبة بقتل المتمردين قال عثمان: لا والله لا أكون أول من يخلف الرسول فى أمته بسفك الدماء، وما أحب أن ألقى الله وفى عنقى قطرة دم لامرئ مسلم وعندما عرض معاوية أن يصحبه إلى الشام رفض وقال: لا أختار بجوار رسول الله أى جوار آخر.

وقد جرى بين الخليفة وبين عبدالله بن عمر حوار فى هذا الشأن نروى فيما يلى خلاصته:

الخليفة: إن الثوار يريدون خلعى، فإن أجبتهم تركونى وإن أبيت قتلونى فماذا ترى؟

ابن عمر: أرأيت إن خلعت نفسك لتنجو من القتل ستخلد فى الدنيا؟
الخليفة: لا، فلا خلود لغير الله.

ابن عمر: أرأيت إن لم تخلع نفسك وقتلك الثوار، هل يملكون لك الجنة أو النار؟

الخليفة: لا، فالجنة والنار قضاء الله.

ابن عمر: إذن فلا تسن هذه السنة فى الإسلام، سنة الخضوع لثائر متمرد، ولا تخلع لباساً ألبسك الله تعالى. وازداد التمرد اشتعالاً، وتجرأ منظموه فى الكوفة والبصرة ومصر بإعلان التجمعات ضد الخليفة، وظهر أعلام من الصحابة أنكروا تصرفات عثمان الاقتصادية فأسرع ابن سبأ وهو الزعيم الحقيقى للتمرد فاجتذبهم أو اجتذب آراءهم، إليه لتقوى بهم حجته، وترجح كفته، ومن هؤلاء الصحابة أبو ذر الغفارى وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود.

وعبد الله بن سبأ هو الشخص الذى نقل التمرد من الكلام إلى العمل، ولم يكن ابن سبأ مخلصاً فى حركته، فقد كان يهودياً ادعى أنه دخل الإسلام ولم يكن يضمر للإسلام ولا للمسلمين خيراً، فانتهز هذه الفرصة ليشعل الفتنة وينزل بالعالم الإسلامى ناراً ظلت متأججة عشرات السنين، ولكى يضمن ابن سبأ نجاح خطته التى وضعها قام بالدعوة لعلى فنشر مذهب الوصاية أى أن علياً وصى محمد كما أن لكل نبى وصياً، وأن علياً خاتم الأوصياء كما كان محمداً خاتم الأنبياء، وأيد رأيه بأحاديث وضعها، كما أشاع نظرية الحق الإلهى، وهى نظرية فارسية عبرت مع الفرس إلى اليمن موطن ابن سبأ، إذ كان الفرس يحتلون اليمن قبل أن يدخلها الإسلام، ومغزى هذه النظرية أن علياً هو صاحب الحق الأول فى الخلافة، وأثار ابن سبأ الشبهات، وجمع حوله أنصاره، كما جمع الساخطين على عثمان، وزحف الثائرون إلى المدينة من الكوفة والبصرة حيث كانت مبادئ ابن سبأ قد وجدت مرعى خصيباً بين البسطاء من أتباع على، وزحف ثائرو مصر كذلك حيث كان ابن سبأ يعيش فى ذلك الوقت وحيث وجد الوسيلة لإثاره المصريين ضد عبد الله بن أبى سرح وإلى عثمان وأخيه من الرضاعة، ويبدو أن تخطيطاً دقيقاً دفع هؤلاء وأولئك ليسيروا فى نفس الوقت ثائرين من بلدان مختلفة إلى المدينة.

وفى المدينة التقت هذه الجموع الساخطة، ولكن علياً تصدى لهم، وشرح لهم أن أى اعتداء على الخليفة هو إضعاف للإسلام وتفرقة للمسلمين، كما أن عثمان دافع عن نفسه دفاعاً مقبولاً، وظهرت الآمال بأن الأحوال ستصلح، وبدأ الثائرون يعودون ولكن فى طريق عودتهم إلى مصر لاحظوا أن هناك رجلا يسير عن بعد

وأنه يحاول أن يختفى عنهم، فشكوا فى أمره فلحقوا به وقبضوا عليه وفتشوه فوجدوا معه خطاباً عليه خاتم عثمان، وفى الخطاب أمر لوالى مصر أن يقتل هؤلاء الثائرين ويقتل معهم محمد بن أبى بكر الذى كان من زعمائهم، وهكذا أصبحت المسألة فى نظر الثائرين دفاعاً عن النفس لأنهم أدركوا أن دماءهم مباحة، فعادوا من طريق مصر وفى نفس الوقت عاد ثائروا الكوفة إلى المدينة، وواجهوا عثمان بالأمر، فأقسم عثمان أنه لم يكتب الكتاب، ولا أمر به ولا يعلم عنه شيئاً، فطلبوا منه أن يسلمهم حامل خاتمه مروان بن الحكم فأبى، وقال إنه لا يصدق أن حامل الخاتم يفعل هذا ولا يستطيع أن يسلمه للموت ولم يثبت أنه مذنب، ويبدو أن من المحقق أن هذا الخطاب حيلة دبرها ابن سبأ ليعيد إلى ثورته الحياة بعد أن أوشكت أن تموت، وقد استطاع الإمام على كرم الله وجهه أن يكشف عن حيلة ابن سبأ: عندما واجه ثوار مصر وسألهم عن سبب عودتهم، فقالوا: إننا اعتقلنا فى الطريق رجلاً أرسله مروان بهذا الكتاب الممهور بخاتم الخليفة، وفيه أمر لوالى مصر بقتلنا وصلبنا.

واتجه الإمام على بسؤال ذكى إلى ثوار الكوفة والبصرة الذين عادوا أيضاً فسألهم:

وأنتم ما الذى جاء بكم، وليس هناك كتاب يأمر بقتلكم وصلبكم؟ فأجابوا: جئنا لننصر ثوار مصر الذين حكم عليهم الخليفة بالقتل والصلب، فعاد الإمام يسألهم ولكن طريقكم غير طريق أهل مصر، فكيف عرفتم خبر هذا الكتاب وعدتم فى نفس الوقت؟ ولم يستطع هؤلاء جواباً،ووضح أنها مؤامرة حاكها ابن سبأ وجماعته، ليستأنفوا ثورتهم ضد الخليفة، وضد الإسلام والمسلمين وقد وضح لنا ابن عبد ربه مسألة الاختلاق ووضع الكتب والرسائل بأسماء الآخرين، وكيف لعب ذلك دوراً هاماً فى إشعال هذه الثورة، ونحن ننقل عبارة ابن عبد ربه بنصها، فهى تلقى ضوءاً ساطعاً على موضوع كثر فيه التخبط وتعددت الآراء: قال: لما قدم القواد قالوا لعلى:

قم معنا إلى هذا الرجل، قال: لا والله لا أقوم معكم قالوا: فلم كتبت إلينا؟ قال: والله ماكتبت إليكم كتاباً قط. فنظر القوم بعضهم إلى بعض، وخرج على من المدينة،واستنكرت عائشة قتل عثمان فقال لها مروان: هذا عملك كتبت للناس

تأمرينهم بالخروج عليه.

فقالت والذى آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسواد فى بياض حتى جلست فى مجلسى هذا فكانوا يرون أنه كتب أيضاً على لسان على وعلى لسانها، كما كتب أيضاً على لسان عثمان مع الأسود إلى عامل مصر، فكان اختلاق هذه الكتب كلها سبباً فى الفتنة.

ويروى لنا التاريخ أن بعض كبار المسلمين هجروا المدينة فى فترة الفتنة، لأن عثمان منعهم من التصدى للثوار، ولأنهم لم يستطيعوا أن يروا العدوان على الخليفة دون دفاع عنه، وبعض كبار المسلمين اعتزل الفتنة خوفاً منها، ولزم داره ولكن كثيرين من شبان المسلمين وقفوا بباب عثمان يحرسونه ويزودون عنه، وكان فى مقدمة هؤلاء الحسن والحسين وعبدالله بن الزبير، وفى فترة الحصار جاء موسم الحج وتحركت شهامة الكثيرين من الحجاج للدفاع عن الخليفة.

واتجهوا إلى المدينة، وفى نفس الوقت كان جند الشام قد بدأوا الزحف إلى المدينة لإرغام المحاصرين على فك الحصار، فأدرك الثائرون أن الفرصة أوشكت أن تفلت من أيديهم فتسور بعض منهم الدار بعد أن استمر حصارها اثنين وعشرين يوماً وهجم الذين تسوروا الدار على الخليفة وهو يقرأ القرآن وضربه الغافقى بحديدة كانت فى يده، وضربه آخر بالسيف ولما حاولت زوجته أن تدافع عنه قطعت أصابعها، وهى تتلقى عنه الضربات وقتل الخليفة فكان مصرعه باباً لفتنة شعواء دفع المسلمون فيها آلافاً من أرواح الشباب الذين لا ذنب لهم ولا جريرة. ولعل من المناسب أن نذكر أن الله شاء أن يثأر ممن اشتركوا فى دم عثمان وانتقم منهم بالقتل والنكال واحداً بعد الآخر حتى الذين طال بهم العمر إلى زمن الحجاج كانت عاقبتهم سفك دمائهم،أليس الله بأحكم الحاكمين. رحم الله عثمان لقد كان كثير البر طيب النفس عميق الحياء اعتدى عليه الظالمون فباءوا بالخسران. أحسن الله جزاءه.

أبو الحسن
على بن أبى طالب

ابن عم الرسول عليه الصلاة والسلام وزوج ابنته فاطمة وعن طريق على وفاطمة وجد أحفاد الرسول ويروى أن الرسول ﷺ بعد أن قام بالمؤاخاة بين المسلمين اثنين اثنين، قال له على: ومن أخى يا رسول الله؟ فأجاب الرسول: أنت أخى فى الدنيا والآخرة.

ولنبدأ الحديث عن على تبعاً لمراحل حياته ومراحل فكره:

بيت على

أبوه أبو طالب، وقد تولى كفالة محمد عليه صلوات الله وسلامه عندما كان صبياً بعد وفاة جده عبد المطلب وتاجر محمد معه فى مطلع شبابه ثم تاجر بعد ذلك فى مال خديجة، وبارك أبو طالب خطبة محمد للسيدة خديجة ودفع مهرها من ماله، ولما نزلت الرسالة على محمد صلوات الله عليه وقف أبو طالب معه موقفاً عظيماً، مما جعله شخصية مهمة فى تاريخ الإسلام فلقد حمى الرسول حماية مطلقة وكان له فى قومه نفوذ ومكانة عالية لم يكن من الممكن أن يتخطاها أعداء الإسلام، وكان الكفار من قريش يترددون على أبى طالب، ويطلبون منه، أن يسكت ابن أخيه الذى كان يسب دينهم ويحقر آلهتهم، ولكن أبا طالب لم يستجب لهم، وقد صاحت به وفودهم مرة قائلة:

يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك، فلم تنهه عنا وإنا لن نصبر على شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا فإن لم تكفه عنا، نازلناه وإياك حتى يهلك أحد الفريقين.

ولكن هذا التهديد لم يأت بطائل، فقد وقف أبو طالب مع محمد وقفة حاسمة، يعبر عنها شعره الذى يقول فيه:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد فى التراب دفيناً

مولد على وإسلامه

ولد على رضى الله عنه سنة ٥٣ قبل الهجرة وسمته أمه حيدرة، والحيدرة هو الأسد ولكن أباه سماه علياً، وهو الاسم الذى عرف به، وإن بقى حيدرة وصفاً له لشجاعته وبطولته، وكان لأبى طالب أبناء أربعة هم: جعفر وعقيل وطالب وعلى وكان على أصغرهم سناً، وعندما أصاب القحط الجزيرة العربية ذهب العباس وحمزة ومحمد (قبل بعثته) إلى أبى طالب يعرضون عليه استعدادهم للتعاون معه فى تربية أولاده، فأخذ العباس طالباً، وأخذ حمزة جعفراً، وكان على من نصيب محمد، وكان على آنذاك فى مطلع الصبا فى حوالى السادسة من العمر فتربى مع الرسول وتشرب خلقه واتجاهاته التى كانت حافلة بالسداد، ومن ثم فإن علياً لم يسجد لصنم قط، لأن الأصنام لم تجد لها مكاناً فى حياة الرسول، وبالتالى لم تجد لها مكاناً فى حياة على الذى كان يحذو حذو الرسول، ويتابع سلوكه، ويعده فى منزلة الأب أو الأخ الأكبر، ولما جاء الإسلام، وعلى فى سن مبكرة يراها المؤرخون حوالى العاشرة من العمر، أعلن على دخوله فى الإسلام، ويروى أنس ابن مالك أن الرسالة بدأت يوم الاثنين، وأن عليا اعتنق الإسلام يوم الثلاثاء التالى، وذهب على إلى والده أبى طالب يقول له: يا أبى إنه لا يدعوك إلا إلى خير فالزمه، ومن أجل إسلام على المبكر يتجه بعض المؤرخين إلى أن علياً كاد أن يولد مسلماً، ودخول على الإسلام مبكراً جعله لا يعرف لهو الصبيان ولا صخب الشبان ولا أسماءهم وعبثهم حتى يمكن القول أنه تخطى مرحلة الصبا والشباب فاكتسى بهيبة الإسلام وجلاله من مطلع العمر وتبعاً لذلك عاصر على نزول القرآن آية إثر آية، وكان يقول سلونى ما شئتم عن كتاب الله فوالله ما من آية من آياته إلا وأنا أعلم أنزلت فى ليل أو فى نهار.

كنية على

كانت الكنية الشهيرة لعلى هى «أبو الحسن» وقد روى أن الرسول جعل له كنية أخرى هى «أبو الريحانتين» يقصد الحسن والحسين ويروى البخارى كنية ثالثة أطلقها الرسول على الإمام على وهى «أبوتراب» وقصة ذلك أن الرسول ذهب إلى بيت على يوماً بعد زواجه من فاطمة فلم يجد علياً فسأل فاطمة عنه فقالت، كان

بينى وبينه شيء، فغاضبنى وترك البيت، فسأل الرسول عنه فعرف أنه فى المسجد نائماً فأتاه وقد أغبر جسمه وملابسه من الريح، فأيقظه بقوله: قم يا أبا تراب فأصبح ذلك كنية له وكان على يفرح بتلك الكنية لأنها من قول الرسول ﷺ.

عمق صلته بالرسول

مما سبق يتضح أن صلة الرسول بعلى كانت عميقة قوية ففى بيت أبى طالب تربى محمد، وفى بيت محمد تربى على، وأصبح على صورة مشابهة لمحمد فى أخلاقه واتجاهاته وكان أول من دخل الإسلام من الصبيان كما ذكرنا ورافق الرسول فى جلساته بدار الأرقم بن أبى الأرقم، ولم يتخلف قط عن هذه الجلسات الخالدة، واختاره الرسول أخا له فى المؤاخاة وقال له: أنت أخى فى الدنيا والآخرة، وقال له مرة: يا على لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق، وقال أيضاً: من كنت مولاه فعلى مولاه.

وقد نام على فى سرير الرسول عليه الصلاة والسلام ليلة الهجرة مع علمه بأن النائم فى هذا المكان معرض للموت من أولئك الذين يحيطون ببيت الرسول وقد شرعوا السيوف للقضاء على محمد عندما يهدأ الليل ولكن علياً كان مستعداً للتضحية بنفسه لينجو الرسول حتى يؤدى رسالة الله إلى الناس. وزوجه الرسول من أحب بناته إليه، من السيدة فاطمة الزهراء ووصفه لها بقوله: زوجتك أكثر الناس علماً وأعظمهم حلما وعندما زفها الرسول إليه، وأراد الرسول أن يتركها فى بيتها الجديد بكت، فقال الرسول ما يبكيك وقد زوجتك أقدم الناس إسلاماً وأحسنهم خلقاً.

ومما يذكر أن خطبة فاطمة كانت فى شهر رجب بعد الهجرة ببضعة شهور، وأن الزواج تم بعد غزوة بدر التى حدثت فى رمضان فى العام الثانى للهجرة، وكان عمر السيدة فاطمة عند زواجها ثمانية عشر عاماً وكان جهازها بسيطاً عبارة عن سرير ووسادة وقربة لحمل الماء ومنخل وقد تلقت بعض الهدايا من نساء عصرها، وعندما لحق الرسول بالرفيق الأعلى انشغل كثيرون من الصحابة بقضية الخلافة ومن الذى سيتولى أمور المسلمين بعد الرسول، وكيف سيقوم بهذا العبء.. ولكن الإمام علياً لم يكترث بشيء من ذلك وظل فى صحبة جثمان الرسول فغسله ودفنه وودعه الوداع الأخير.

من أخلاق على

لعل جماع القول فى أخلاق على هو ما روى عن معاذ بن جبل من أن الرسول ﷺ ميز علياً بصفات حين قال له: أنت أوفى الرجال بعهد الله، وأقومهم بأمره، وأقسمهم بالسوية، وأعولهم فى الرعية وأبصرهم قضاء.

علم على وفقهه

والحديث عن علم على حديث يطول، فقد كان من الصفوة بين المسلمين الذين جمع لهم الفكر السديد، وجوامع الكلم، والحنكة فى القضاء، وقد كان مرجع الفتوى فى عهد أبى بكر، وكان إذا غمض رأى صاح به أبو بكر «أفتنا يا أبا الحسن» أما عمر فكان يعتمد على فقهه ومعرفته اعتماداً كبيراً، وكان فى هذا يقول: لولا على لهلك عمر، وتقديراً من عمر بن الخطاب لفقه على ومعارفه عينه الخليفة للقضاء بين الناس، وكان يقول عنه: على أقضانا، وكان يتعوذ من معضلة ليس لها أبو الحسن، فمن ذا الذى يستطيع أن يحل مشكلة لم يستطيع الإمام على حلها. وهناك قصة تروى، وتدل على ما كان الإمام يتمتع به من فقه وعلم بالحساب وسرعة بديهة، فيروى أن امرأة جاءت تشكو إليه أن أخاها مات عن ستمائة دينار، ولم تعط من ثروته إلا ديناراً واحداً فقال لها الإمام: لعله تارك زوجة وابنتين وأما واثنى عشر أخوة وأنت، فقالت: نعم فقال لها: الدينار هو نصيبك فى هذه التركة، ومما يدل على علو مكانته فى المعرفة بالسنة والحديث ما روى أنه عندما أفتى بصوم يوم عاشوراء، سألت عائشة لما علمت بذلك من أفتاكم بصوم عاشوراء؟ فقالوا لها: على فقالت: أما إذا كان على هو الذى نقل ذلك فاتبعوه لأنه أعلم الناس بالسنة.

حلمـــــه

يروى عن حلمه أنه نادى مرة غلاماً له، وكرر النداء ولكن الغلام لم يستجب له ولم يذهب إليه، فذهب له الإمام فوجده مضطجعاً غير نائم، فقال له: لقد دعوتك مراراً فلم تجب وأنت يقظان غير نائم، فما الذى حملك على هذا، فقال له الغلام: أأقول الصدق؟ قال الإمام: نعم، قال الغلام: إنى أعرف حلمك وهذا جعلنى آمنا من عقابك فتكاسلت، فقال له على: اذهب عنى، وأنت حر لوجه الله.

كان بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان صراع وقد استطاع جيش معاوية أن يستولى على بئر الماء التى كان يشرب منها الجيشان، ومنعوا جيش على من أخذ الماء من البئر ولكن علياً اقتحم منطقة البئر برجاله، ولم يستطع رجال معاوية أن يقفوا فى طريقه، ففروا تاركين البئر لعلى ورجاله.

وخاف معاوية أن يمنع علىّ الماء عن رجاله، ولكن عمرو بن العاص أحد أنصار معاوية آنذاك طمأن معاوية، وقال له: إن علياً لن يمنع الماء عن أحد، فليس هو مثلك يسعى للنصر بأى ثمن وأخلى على فعلاً السبيل لأتباع معاوية ليأخذوا من البئر ما يشاءون من الماء.

كرمه بما يملك

لم يهتم على بجمع المال،وكان زاهداً فيه، ومن هنا لم يكن لديه إلا الكفاف ويروى أنه مع ذلك قدم هذا الكفاف للمحتاجين مع حاجته إليه، فقد عمل لرجل يهودى بشىء من الشعير، وقسم الشعير ثلاثة أقسام وطحنت زوجته السيدة فاطمة ثلثه للطعام وما أن تم صنع الطعام حتى دق مسكين بابهما يطلب الصدقة، فقدما هذا الطعام للمسكين، ثم أعد الثلث الثانى ودق بابهما يتيم، فأعطياه هذا الطعام وأعد القسم الثالث ثم قدماه لأسير دق بابهما يطلب العون، ويقال إنه فى هذه الأحداث نزلت الآية الكريمة: **﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾**.

وفى الحديث عن زهد على نبدأ بأن نروى كلماته فى هذا المجال وهو فى هذا يقول:

طوبى للزاهدين فى الدنيا، الذين اتخذوا الأرض بساطاً وترابها فراشاً وأخذوا منها وأعطوا فيها فالدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار غنى لمن تزود منها، إنها مهبط الوحى ومسجد الأنبياء وعن طريقها ينال الناس الرحمة ويكسبون الجنة وكان الإمام على شديد الزهد فى الدنيا، وكان يقنع بلباس خشن وقد سأله مرة أصحابه فى ذلك فقال: هذا الثوب يصرف عنى الزهد، ويساعدنى على الخشوع لله، وهو قدوة صالحة، حتى لا يتجه الناس للسرف والبذخ، وقد وصل به زهده إلى درجة

عالية، فقد روى أنه أعطى مرة بعض النقود لغلام له يشترى بها ثوبين متفاوتى القيمة فلما اشتراهما الغلام، أعطاه الإمام أرقهما نسيجاً، وأغلاهما قيمة، وقال له: أنت أحق منى بالثوب الجيد لأنك شاب تحب أن تجمل نفسك، ولعل خير ما وصف به على فى مجال الزهد هو قول عمر بن عبد العزيز عنه: أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب.

شجاعتـــــه

يعتبر الإمام على من أعظم الشجعان والأبطال الذين عرفهم الإسلام، لقد كان لا يهاب الموت ولا يهاب عدواً أيا كان ذلك العدو فى اقتداره وقوته، وكان له دستور وضحه فى بيتين من الشعر معناهما أن المعركة التى يدخلها قدر الله نتائجها، فالله سبحانه وتعالى إما أن يكون قد كتب له النجاة فيها وحينئذ فليندفع فيها بقوة غير هيابه، فلن يصيبه مكروه، مادام الله كتب له النجاة وإن كان الله قد قضى أن يلاقى فيها حتفه، فليندفع أيضاً بقوة غير هياب إذ لا نجاة له مهما كان تردده وهذان البيتان هما:

أى يـــوم من المـــوت أفر ... يوم لا يُقدر أو يوم قـــدر

يـــوم لا يقـــدر لا أرهـبه ... ومن المقدور لا يغنى الحـذر

وقد كانت صرخة على بهذين البيتين تفزع أعداءه إذ تجعلهم يدركون مدى المخاطرة التى يندفع بها إلى المعركة غير متردد أو خائف ولذلك ما كان أحد يستطيع أن يواجهه أو يقوى على منازلته، ولم يهزم على فى معركة عسكرية قط، بل كان يحقق دائما نجاحاً حاذقاً رائعاً ومع هذه القوة الهائلة لم يكن الإمام على يبدأ أحداً بقتال، ولا يدعو إلى مبارزة وإنما كا يستجيب إذا دعاه الآخرون، وأبرزوا جانب التحدى وقد نقل هذا الاتجاه إلى ابنه الحسن حينما قال له: لا تدعون إلى المبارزة، فإن دعيت إليها فأجب فإن الداعى إليها باغ والباغى مصروع، ولم يكن الإمام على يعرف الخداع وكان عادلا شهماً حتى مع أعدائه، ولم ينكل بأحد بسبب شبهة، وطالما جرت عليه هذه الاتجاهات بعض المتاعب ولكنها لم تغير نهجه، ومن أمثلة ذلك ما ذكرناه من قبل أنه سمح لجند معاوية بأخذ الماء من معين الماء بعد أن استولى عليه، مع أن معاوية منع الماء من جند على عندما كانت السلطة له على الماء، ولم ينكل بالأشعث بن قيس مع علمه بأن الأشعث كان فى

جنده ولكن ولاءه كان مع معاوية، وأوقف صراعه مع أهل الجمل بعد أن تمت عليهم الهزيمةفلم ينزل أى سوء بعبد الله بن الزبير أو مرداف بن الحكم أو سعيد ابن العاص، واكرم السيدة عائشة وأعادها معززة مكرمة إلى المدينة دون أى عتاب مما يجعلنا نؤكد أن خلق الفروسية كان واضحاً فيه، وقد شهدت الغزوات الإسلامية صور رائعة من بطولات على. ففى غزوة بدر الكبرى كان أحد الأبطال الثلاثة الذين استجابوا للتحدى الذى قام به عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد، عندما انتزعوا أنفسهم من جيش قريش وتوسطوا المسافة بين الجيشين وصرخوا: من يبارز؟ وقد خرج لهم على وعمه حمزة وابن عمه عبيدة بن الحارث.

وقد حقق فى هذه الغزوة انتصاراً باهراً، ومثل هذا حدث فى أحد فقد انتصر على فى المبارزة انتصاراً حاسماً، وفى غزوة الخندق من صفوف الكفار رجل مشهود له بالبأس والقوة هو عمرو بن ود وصرخ: من يبارز؟ فتردد الأبطال فى مواجهته، ولكن علياً قال للرسول: أنا له يارسول الله. فشفق الرسول على على وقال له: إنه عمرو بن ود يا على، فكرر عمرو صرخته وتحديه فصاح على: يانبى الله أنا له وإن كان عمرو بن ود وبرز على ولكن عمرو بن ود صاح به ياعلى لقد كانت بينى وبين أبيك مودة ولا أريد أن أقتلك: فقال: له على ولكنى أريد أن أقتلك فى سبيل الله. وحينئذ دار بينهما صراع عنيف وغمراهما الغبار، فلم تكن رؤيتهما بمستطاعة، وبعد فترة من الضرب والنزال خرج على من وسط الغبار وهو يصيح: الله أكبر، وترك خصمة مجندلا فى دمه وفى غزوة خيبر قال الرسول صلوات الله عليه وسلامه: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله فتمنى كثير من المسلمين أن تكون لهم الراية أملاً فى أن ينالوا حب الله ورسوله ولكن الرسول أعطى الراية علياً[1]. وأبدى على فى هذا اليوم المجيد شجاعة نادرة ويقال أنه جذب باب الحصن بيده، فأوقعه على الأرض وكان ينوء بحمله عديد من الرجال، وفى يوم فتح مكة تجمعت فى على الشجاعة والبطولة من جانب والسماحة والفروسية من جانب آخر، فقدكانت راية المسلمين فى يد البطل الأنصارى سعد بن عبادة وعندما أحس سعد بالنصر هتف قائلاً: اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة فانزعج المهاجرين الذين سمعوا هذا الهتاف، وخافوا أن ينزل سعد بأهليهم بمكة وبالبيت الحرام ألواناً من الضر، فأسرعوا للرسول

---

(١) متفق عليه.

وتدارك الرسول الأمر، فأرسل علياً إلى سعد ليأخذ الراية وليقود هو وقيس بن سعد جيش المسلمين الزاحفين إلى مكة واستطاع على أن يكبح جماح الغضب، ولا يستهويه النصر فأطلق منادياً ينادى بما أمر به من الرسول من دخل الكعبة فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن وكان من حكمة الرسول أنه أشرك قيس بن سعد فى القيادة مع على ليرضى أباه، وتناسى على فى هذه الساعة ما لاقاه من عنت قريش وإسرافهم فى إيذائه، وإيذاء ابن عمه رسول الله، وهكذا شهد على الغزوات كلها فيما عدا غزوة تبوك قد خلفه الرسول على أهله، لبعد الشقة فى هذه الغزوة، وكانت بطولة الإمام على مصحوبة، كما قلنا بالشهامة والفروسية، فيروى أنه فى موقعة صفين خرج رجل من جيش معاوية اسمه كريز بن الصباح الحميرى، وصرخ: من يبارز؟ فخرج له واحد من جيش على، فصرعه كريز فخرج ثان وثالث فصرعهما كريزا أيضاً، وتمادى الرجل بالإعجاب بقوته فكرر نداءه واضطر على أن يخرج إليه بنفسه، وما هى إلا لحظة أو لحظات حتى صرعه على ونادى على عقب ذلك: هل هناك آخر يريد المصارعة خرج شخص آخر، وسرعان ما صرعه على ثم خرج ثالث فألحقه على بالآخرين وتوقف على عن النداء بالمصارعة وقال للناس لو لم تبدءون ما بدأناكم، والحرمات قصاص، وعاد إلى مكانه بين جيشه دون الاستمرار فى التحدى، وهكذا كان على مضرب الأمثال فى الشجاعة وكان فى الطليعة دائماً فى جميع غزوات الرسولﷺ، ولا تكاد تخلو غزوة من على مصارعاً ومبارزاً غير هياب للموت، ولا مقيماً للخوف وزناً وطالما كسب بسيفه النصر للمسلمين، ومن الواضح أن بطولة على والدماء التى سفكها مدافعاً عن الإسلام أورثته كثيراً من العداء، فقد كانت هناك جراح فى قلوب الكثيرين من الطعنات التى وجهها على إلى أبطالهم أو شجعناهم.

على فى عهد عثمان

عندما آلت الخلافة إلى عثمان رضى الله عنه، بايعه على، ولازمه فى كثير من الأحوال وكان يبدى له النصح مااستطاع وفى أخريات عهد عثمان عندما وقف الثوار يهددون الخليفة، تدخل على لكبح جماحهم وردهم عن سوء اتجاههم، ولكن هؤلاء المتمردين الذين ينتسبون للإسلام فى الظاهر، ويعادونه فى قرارة نفوسهم، اتخذوا وسائل متعدده للشغب والفوضى وحاصروا دار عثمان، ولم

يكن لعلى جيش يستطيع به مقاومة الثائرين ومع هذا أرسل ابنيه الحسن والحسين للدفاع عن الخليفة، ولما بلغه نبأ قتل عثمان قال من تبرأ من دم عثمان فقد تبرأ من الإيمان، وعندما بويع بالخلافة بعد مقتل عثمان كانت الدولة الإسلامية تعيش فى محنة كبرى، أصبح الزمام فى يد الغوغاء والقتلة والمتآمرين، وأوشكت الفتنة أن تعم المنطقة كلها، ولذلك عندما قال له بعض الصحابة ألا عاقبت من أجلب على عثمان؟ أجاب على كيف لى بالتصدى لهذا الأمر الآن والغوغاء يملكوننا ولا نملكهم، وقد انخدع الكثيرون باتجاهاتهم فاتبعوهم، وهاهو ذا جيش الغوغاء يبلغ عشرة آلاف مقاتل يشرعون الرماح ويجهرون بأنهم «كلهم قتلة عثمان» ومواجهة هؤلاء الآن ستكون فتنة، تملأ الأرض دماء وضحايا، فاصبروا حتى يهدأ الناس، وحينئذ يأتيكم أمرى بما يرضى الله، والعجيب أن موقف على من قتلة عثمان، كان هو نفس الموقف الذى وقفه معاوية عندما آلت له الخلافة فقد التقى بعائشة بنت عثمان فقالت له وا أبتاه: وذكرته بدم أبيها ولكنه قال لها: ياابنة أخى إن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أماناً، ومع كل إنسان سيفه، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا، ولا ندرى حينئذ أيكون الأمر لنا أو علينا.

مواقف على والخلافة بعد رسول الله

عندما اجتمع المهاجرون والأنصار فى«سقيفة بنى ساعدة» ليختاروا خليفة للمسلمين عقب وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، رأى الأنصار أنهم أولى بأن يختار الخليفة منهم لأنهم الذين استقبلوا الإسلام وهو ضعيف فمنحوه القوة ودافعوا عنه بكل طاقاتهم، ورأى المهاجرون أنهم أولى بالخلافة لأن رسول الله منهم، ولأن قريشاً أقوى قبائل العرب، وأعظمها، ورجحت كفة قريش واستقر الأمر لقريش على أن يكون الخليفة منهم ورأى على بن أبى طالب أن ميسرة هذا النقاش تحتم بنو هاشم أولى الناس بالأمر، فما دامت القبيلة لها اعتبار فى الميزان ففرع بنى هاشم أقرب للرسول من باقى فروع قريش، وأضاف الإمام على أن بنى هاشم لا يطالبون بالأمر لمحض القرابة، فالإسلام للجميع والناس متساوون فى الإسلام ولكن القرابة ترجح إذا وجدت الصفات الأخرى اللازمة فى الخليفة، ولذلك تجده يحدد هذه الصفات بقوله: «أما والله لنحن أحق بالأمر منكم ما دام فينا القارئ لكتاب الله، والفقيه فى دين الله، العالم بسنن رسول الله المضطلع

بأمر الرعية، القاسم بينهم بالسوية» ولكن زعماء الصحابة أكدوا أن ترجيح قريش ليس للقرابة من الرسول بل لأنها مسموعة الكلمة بين العرب ولو دخلت قريش جحر ضب لتبعها العرب، وكانت الحال بالمدينة المنورة عقب مقتل عثمان سيئة تنذر بالخطر الجسيم، فعامة الناس كانوا هم القوة الوحيدة بالمدينة آنذاك، أما أصحاب الرأى من القادة والفقهاء والحفاظ والعلماء فقد كانوا قد اعتزلوا الفتنة وعكفوا فى بيوتهم، وكانوا متفرقين فى البلدان يؤدون عملهم العلمى أو العسكرى هنا وهناك ولم يكن لدى الناس بالمدينة ومن انضم لهم من صحابة رسول الله ﷺ ملجأ بعد مقتل عثمان إلا الإمام علىّ لينقذ المسلمين مما ألم بهم: إن هذا الأمر ليس لكم، إنه لأهل بدر، أين طلحة والزبير وسعد؟ ولم يكن أحد من هؤلاء الخاصة يستطيع آنذاك أن يواجه إجماع الناس فيمتنع عن البيعة لعلى فبايع هؤلا راضين أو كارهين، وتبعهم كثير من المهاجرين والأنصار، وكان من الذين بايعوه طلحة، والزبير، وسعد بن أبى وقاص، وسعيد بن زيد، وعمار بن ياسر، وأسامة بن زيد، وسهيل بن حنيف، وأبو أيوب الأنصارى، ومحمد بن مسلمة، وزيد بن ثابت، وخزيمة بن ثابت ومروان بن الحكم.

دستور على لولاته

أصدر على لولاته دستوراً حافلاً نقتطف منه بعض الفقرات فيما يلى:

«أنصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم، لا تدخلن فى مشورتك بخيلاً يبعدك عن الفضل أو يخوفك من الفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يحسن لك الشره بالجود، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله.

استعمل لمساعدتك خيرة الرجال، بعد أن تختبرهم، ولا تول أحداً بدافع المحاباة والأثرة، واختر أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة، فإنهم أحسن الناس أخلاقاً وأصح أعراضاً وأقل فى المطامع أسبغ الأرزاق على عمالك، فإن ذلك قوة لهم على إصلاح أنفسهم وغنى لهم يمنعهم عن تناول الحرام وحجة عليهم إن خالفوا، أو خانوا الأمانة.

تفقد عمالك دائماً وابعث العيون من أهل الصدق ليروا أحوالهم، فإن تعاهدهم فى السر، يجعلهم دائما حريصين على الأمانة والرفق بالرعية.

وليكن أبعد رعيتك عنك من يطلبون عيوب الناس ويكشفون أسرارهم، فإن فى الناس عيوباً الوالى أحق من يسترها فلا تكشف عما غاب عنك منها، فإنما عليك تطهير ما ظهر لك.

وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى جلب الخراج، لأن الخراج لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة، خرب البلاد وأهلك العباد.

إنما أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الناس حقهم، فأقبل الناس عن شراء هذا الحق بالباطل وافتدوه بالرشوة».

ولعمرى إن أولياء الأمور فى العالم الإسلامي لفى أشد الحاجة أن يقرءوا هذه الوصايا، وتلك التعليمات وأن يفهموها ويعملوا بها، ففى ذلك النجاح للأمة الإسلامية التى تترنح لبعدها على الإسلام وتعاليمه، ولم يكد على يرسل ولاته، ويعد العدة بزورق الدولة فى ضوء هذه التعليمات الإسلامية الرائعة حتى فاجأته موقعه الجمل سنة ٣٦هـ وبعدها جاءت موقعة صفين فى العام الثانى وكتبتا النهاية لعهد الإمام على رضى الله عنه وكرم الله وجهه.

من مآثر على

وبعيداً عن الأمور العسكرية ينبغى أن نتحدث عن أمور فكرية ارتبطت بالإمام على رضى الله عنه وكرم الله وجهه ومن هذه الأمور وضع علم النحو:

ينسب إلى الإمام على أنه هو الذى أشار على أبى الاسود الدؤلى، بأن يضع علم النحو وذكر له أسس هذا العلم، وقال له:«انح هذا النحو يا أبا الأسود، وقد بدأ ذلك عندما ظهر اللحن فى ألسنة العرب بسبب اختلاطهم بغير العرب بعد اتساع الفتوحات، فشكا أبو الأسود الدؤلى للإمام على ذلك الأمر،وما يمكن أن يتسبب عنه من ضياع اللغة العربية،لغة القرآن الكريم فقال له الإمام على:أن كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف، وقد يكون الاسم مرفوعاً أو منصوباً أومجروراً،وبعد أن أملى عليه بعض قواعد اللغة العربية قال له: انح هذا النحو يا أبا الأسود».

تنظيم الشرطة

تنظيم الشرطة إذا كانت الشرطة والعسس عرف فى عهد عمر رضى الله عنه

فإن تنظيم الشرطة وتحديد جنود لها والاعتماد عليهم فى استتباب الأمن والسلامة وحفظ النظام، قد تم فى عهد على وهو الذى أطلق على رئيس الشرطة لقب «صاحب الشرطة».

بلاغة على

كان الإمام على قمة في الفصاحة والبلاغة، اديباً ثابت القدم فى الأدب والبيان فصيحاً لا يتطاول إلى فصاحته الأدباء والبلغاء والذى يطالع كتاب نهج البلاغة المنسوب إلى الإمام على[1] يجد فكراً رائعاً دون بأسلوب خلاب، وسنقتطف اقتطافات قصيرة من كلان الإمام على، وقد اتجهنا إلى اختيار اليسير منها الذى يمكن فهمه دون عناء كبير للقارئ.

يقول فى حرمة الدم: إياك وسفك الدماء بغير حقها، فإنه ليس شىء أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة من سفك الدماء بغير حقها، والله سبحانه وتعالى مبتدئ بالحكم بين العباد، فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة، والسلطان إذا حاول أن يقوى سلطانه بسفك دم حرام، فإنه فى الحق يضعف سلطانه ويزيله من حيث لا يدرى.

وقال فى فضل العلم: العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال والمال تنقصه النفقة والعلم ينمو مع الإنفاق والعلم حاكم والمال محكوم عليه، ويهلك خزنة الأموال وهم أحياء ولكن العلماء يبقون ما بقى الدهر، تختفى أجسامهم، ولكن فكرهم ومثلهم وعلمهم تبقى مع الزمن.

وقال فى الزهد: إن الدنيا ترتحل مدبرة، وإن الآخرة تأتى مقبلة، ولكل منهما بنون فكونوا من أبناء المقبلة وليس من أتباع المدبرة، وإن من اشتاق إلى الآخرة بعد عن الشهوات ومن طلب الجنة سارع إلى الطاعات وإن لله عباداً شرورهم مأمونة ونفوسهم عفيفة، وحوائجهم خفيفة فكونوا من هؤلاء فى الدنيا لتنالوا خير الدنيا والآخرة.

أسرة على

كانت السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول صلوات الله عليه وسلامه هى أولى

(١) والراجح أن الكتاب ليس لعلى بن أبى طالب.

زوجات الإمام على ولم يتزوج غيرها فى حياتها، وقد أنجب منها الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وزينب الكبرى، وأم كلثوم الكبرى، كما أنجب منها ابناً اسمه محسن توفى فى طفولته، وقد ماتت السيدة فاطمة بعد أبيها بحوالى ستة أشهر وتزوج الإمام على عدة زيجات بعد ذلك، وأنجب عدداً من الأبناء والبنات، وقد قتل بعض أبناء الإمام على شهداء مع الإمام الحسين فى موقعة كربلاء سنة ٦١هـ، ومن أشهر نسائه أسماء بنت عميس وكانت زوجة لأبى بكر وأنجبت منه محمد بن أبى بكر، فلما توفى أبو بكر تزوجها الإمام على لحمايتها ولتربية ابنها الذى كان طفلاً صغيراً، ومن أشهر زوجاته كذلك خولة بنت جعفر الحنفية وقد أنجب منها ابنه الذى نسب إليها فى أكثر الروايات التاريخية فسمى محمد بن الحنفية.

نهاية على

لم يستقر الأمر لعلى رضى الله عنه يوماً واحداً طيلة خلافته، وكان يعالج مشكلة فتظهر له مشكلات أخرى، وبينما كان على يعد العدة لحملة جديدة على معاوية كانت هناك مؤامرة ثلاثية تدبر للقضاء على على ومعاوية وعمرو بن العاص ومدبرو هذه المؤامرة هم ثلاثة من الخوارج اتفقوا على التخلص من الزعماء الثلاثة فى ليلة واحدة فاتجه عبد الرحمن بن ملجم لقتل على بالكوفة، واتجه البرك بن عبد الله التميمى إلى الشام لقتل معاوية واتجه عمرو بن بكر التميمى إلى مصر لقتل عمرو بن العاص، ، وقد نجح ابن ملجم من بين هؤلاء الثلاثة، فطعن علياً بسيفه طعنة قاتلة وهو ينادى للصلاة، وأمسك به المصلون، فلما مات على قتل ابن ملجم فيه، أما البرك فقد طعن معاوية طعنة غير قاتلة، وأما عمرو بن بكر فقد جلس يرقب عمرو بن العاص ليخرج لصلاة الفجر، ولكن هذا لم يخرج لمرض ألم به، وأناب عنه خارجة بن حبيب السهمى ليصلى بالناس فطعن عمرو ابن بكر خارجة وهو يحسبه عمرو بن العاص.

وانتهى بذلك عهد الإمام على صاحب أفصح لسان، وأقوى سيف وألمع جنان، بين أتباع الرسول عليه الصلاة والسلام، وانتهى به عهد الخلفاء الراشدين ودفن فى النجف الأشرف بالعراق. نسأل الله أن يجزيه خير الجزاء على ما قدم من جهد لخدمة الإسلام ورفع رايته خفاقة عالية.

«٥»

طلحة بن عبيد الله

هو طلحة بن عبيد الله من بنى تيم قبيلة أبى بكر الصديق، وأمه هى الصعبة بنت الحضرمى أخت العلاء بن الحضرمى من أهل اليمن ومن أوصافه أنه كان أميل للبياض، فليس بالطويل ولا بالقصير. ولد رضى الله عنه سنة ٢٨ قبل الهجرة وتوفى سنة ٣٦ هجرية.

طلحة اسم ولقب

اشتهر طلحة بن عبيد الله بالكرم والجود حتى أصبح اسمه «طلحة» يعنى الكرم وطلحة الطلحات يعنى أكرم الكرماء، وعن كرم طلحة يقول قبيصة بن جابر: صحبت طلحة بن عبيد الله فما رأيت أعطى لجزيل مال من غير مسألة منه، وقد اشتهر بالكرم طلحات خمسة هم طلحة بن عبيد الله الذى كان يلقب طلحة الفياض، ثم طلحة بن عامر، ويلقب طلحة الجود، وطلحة بن عبيد الله بن عوف ويلقب طلحة الندى، وطلحة بن الحسن بن على ويلقب طلحة الخير، وطلحة بن عبيد الله بن خلف ويلقب طلحة الطلحات، وكانت التسمية بطلحة تعتبر تيمناً بطلحة بن عبيد الله وتفاؤلا بأن يسير المسمى على منواله فى الكرم والجودة وقد جاء فى كتاب «الرياض النضرة فى مناقب العشرة» أن الرسول ﷺ لقبه طلحة الخير فى غزوة بدر حين غاب عنها لقضاء حاجة المسلمين، واشترى طلحة مرة بئراً فتصدق بمائها ونحر جزورا فأطعم الناس، فلقبه الرسول ﷺ طلحة الفياض، ولقبه فى غزوة حنين طلحة الجود.

إسلام طلحة

يروى أن طلحة كان فى تجارة له قبيل الإسلام ببلدة «بصرى» فى حوران التى تقع إلى الجنوب من دمشق، وهناك التقى بأحد الرهبان، فلما عرف الراهب أن طلحة من أرض الحجاز قال له: إن النبى الذى سيخرج فى بلاد الحرم والذى تنبأ به الأنبياء السابقون قد أهل عصره وأشرقت أيامه، وأوصى الراهب «طلحة» أن يسرع إلى تصديقه فإنه نبى الرحمة والهدى وانشغل طلحة بهذا النبأ ولذلك كان

أول ما اهتم به عقب عودته أن سأل عما إذا كان قد حدث فى البلاد شىء غير عادى فى أثناء غيبته، فقالوا له: أن محمداً الأمين يذكر أنه رسول يوحى إليه، فسأل طلحة: ومن اتبعه وصدقه؟ فقالوا له أبو بكر فهتف طلحة من أعماقه: والله لا يجتمع الاثنان على ضلال أبداً، وأسرع طلحة إلى أبى بكر الذى حدثه لحظة عن محمد ودعوته التى تنكر عبادة الأوثان وتدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد، وتجمعت الوسائل التى دفعت طلحة ليطلب من أبى بكر أن يصحبه للرسول ليعلن إسلامه، وكان بذلك من السابقين الأولين.

القرينان

قلنا فى مطلع حديثنا عن طلحة أنه هو وأبو بكر من بنى تيم، وكان زعيم بنى تيم آنذاك رجلاً معروفاً بالشدة والقسوة، هو نوفل بن خويلد، ومن أجل قسوته كان يدعى «أسد قريش» وكان هذا شديد التمسك بوثنيته، ولذلك آذاه أن يعتنق أبو بكر وطلحة دين الإسلام وقد عبر عن سخطه عليهما بأن ربطهما فى حبل واحد، وأخذ يشهر بهما، ولذلك سميا القرينين وظلت هذه التسمية شرفاً يحرص عليه طلحة، وقد هاجر طلحة إلى المدينة مضحيا بما كان له فى مكة من غنى ويسار، ومعرضاً تجارته الواسعة لصنوف البوار، وفى يثرب آخى الرسول ﷺ بينه وبين رجل واسع الشهرة فى التاريخ الإسلامى هو أبو أيوب الأنصارى.

لمحة من صفاته

عند الحديث عن صفات طلحة يتحتم أن نبدأ بالحديث عن كرمه، ذلك الكرم الذى جعل من اسمه ـ كما ذكرنا ـ صفة تدل على سعة العطاء والبذل، وهناك عن كرم طلحة وقائع نلم ببعضها فيما يلى:

يقول طلحة: كان بينىَ وبين عبد الرحمن بن عوف أرض زراعية فقاسمته إياها فأراد أن يسقى من أرضى فمنعته لأن له وسيلة أخرى لسقيها، فشكانى إلى رسول الله فقال له الرسول ﷺ: أتشكو رجلاً له الجنة؟ فأتانى عبد الرحمن وبشرنى بقول الرسول ﷺ فقلت له: يا أخى أبلغ منى المال أن تشكونى بسببه للرسول ﷺ؟ فقال قد كان ذلك. فقلت له: أشهد الله أن هذه الأرض لك. وجاء رجل فقير يتقرب له برحم، أى يدعى نوعاً من القرابة بينه وبين طلحة، فقال له

طلحة: هذه الرحم لم يتقرب إلى بها أحد قبلك «أى أن طلحة لم يكن يعرف هذه القرابة» وإن لى أرضاً عرض على عثمان ثلاثمائة ألف ثمناً لها، فإن شئت فخذ الأرض، وإن شئت فخذ ثمنها من عثمان.

وكان طلحة يلبس مرة رداء ثميناً وخلعه لحظة ووضعه بجانبه، فاندفع رجل وأخذ الرداء ومشى به، فلحق به بعض الناس وأحضروا الرداء، ولكن طلحة أهدى الرداء للرجل وهو يقول: إنى لأستحى من ربى أن يؤمل أحد فىّ فى شيء وأخيب أمله.

وكان طلحة لا يدع أحداً من بنى تيم إلا كفاه وأغناه، وكان كذلك يزوج الأيامى منهم ويقضى ديونهم، ويسد حاجاتهم، وباع طلحة مرة أرضاً استغنى عنها وقبض ثمنها وكان كثيراً جداً فقال إن رجلاً تبيت عنده هذه الأموال وهو لا يدرى ما يطرقه من قضاء الله لرجل أحمق وأخذ يوزع هذه الأموال على المحتاجين فلما انتصف الليل كان بيته قد خلا منها.

تجارته وثقافته

كان طلحة تاجراً ناجحاً، شديد النشاط عظيم الثقة بالله، وهذه التجارة الناجحة هى التى أمدته بالمال الغزير الذى كان يتصدق به ويروى أنه كثيراً ما كان يخرج من كل ماله، أى يتصدق به كله أو يتصدق بأكثره، ولكن ماله سرعان ما ينمو من جديد ويعوضه الله عما أعطى للمحتاجين وتروى زوجته سعدى بنت عوف فى ذلك أنها رأت زوجها مرة مهموماً فسألته: ما شأنك؟

فأجاب: المال الذى عندى هو سبب همى وكربى: فقالت له اقسمه بين الناس فقسمه، ولكن سرعان ما نما المال من جديد حتى كأنه يضيف إليه مع أنه كان يأخذ منه ويتصل بتجارته شيء آخر هو ثقافته فإن رحلاته للتجارة وصلاته الواسعة بالشعوب والأقوام، نمت معارفه وأكسبته خبرات كثيرة عن حياة الأمم السياسية والاجتماعية والفكرية ولهذا كان من أوسع المسلمين ثقافة وفكراً.

محدث وخطيب

ومن صفات طلحة أنه كان محدثاً، وقد روى الحديث عن الرسول ﷺ وروى عنه ابناه يحيى وعيسى، كما روى عنه أيضاً قيس بن أبى حازم وأبو سلمة

ابن عبد الرحمن والأحنف بن قيس وغيرهم، وبالإضافة إلى روايته للأحاديث النبوية كان طلحة كما جاء فى الرياض النضرة، من خطباء الصحابة، ويروى أن الرسول ﷺ قال له: يا طلحة أنت فى حفظ الله ونظره إلى أن تلقاه.

بطولته فى غزوة أحد

تقرر المراجع التى بين أيدينا أن طلحة حضر المشاهد كلها، ولكننا لا نكاد نجد له دوراً بارزاً فى غير غزوة أحد، ويبدو أن دوره المجيد فى (أحد) غطى على كل أدواره فى المشاهد الأخرى لأن بطولته فى أحد «فاقت الحد» وجعلت كفة قدراته الحربية ترجح فلا تحتاج إلى المزيد وقبل أن نتحدث عن أحد ينبغى أن نذكر أن طلحة لم يحضر غزوة بدر، فإن الرسول ﷺ كان قد كلفه ومعه سعيد بن زيد بمهمة ترتبط بقافلة قريش التجارية، ولما عادا من هذه المهمة وجدا المسلمين عائدين أيضاً من غزوة بدر بعد أن كتب الله لهم النصر، وقد أبدى طلحة وسعيد ألمهما لأنهما لم يكن لهما شرف المشاركة فى هذه الغزوة، ولكن الرسول ﷺ طمأنهما بأن لهما ثواب من اشترك فيها، وفرض لها سهمهما لأنهما كانا فى مهمة إسلامية حين وقوعها.

فإذا جئنا إلى غزوة أحد وجدنا مواقف تفوق الإعجاب والتقدير فقد عرض طلحة نفسه لأقسى الأخطار من أجل أن ينجو الرسول ﷺ من الموت، إذ كان أعداء الإسلام قد وجهوا كل اهتمامهم للقضاء على الرسول، وقد بلغ من مغامرات طلحة واستماتته فى الدفاع عن الرسول أن وصفه الرسول بقوله: من سره أن يرى شهيداً يمشى على الأرض فلينظر إلى طلحة، فإن الرسول لم يكن يتوقع السلامة لطلحة بعد ما فعله وما تعرض له فى هذه الغزوة لقد كان طلحة جيشاً كاملاً يحمى الرسول ويحارب أعداءه، فقد أصابت ضربات الأعداء الرسول، فأسرع إليه طلحة وأحاط به يحجبه بيساره ويرد عنه بيمينه ومن أجل هذا كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد يقول: ذاك يوم كله طلحة ورمى مالك بن زهير يوم أحد الرسول ﷺ بسهم ولكن طلحة تلقاه بيسراه فشلت هذه اليد الطاهرة وصار هذا الشلل مفخرة لطلحة مدى الحياة وتروى عائشة رضى الله عنها أن أبا بكر ذكر أن طلحة يوم أحد أصابته بضع وسبعون طعنة وضربة ورمية وأن أصبعه قد قطعت ويده قد شلت: تزوج طلحة أربع نسوة كان عند الرسول صلوات الله

وسلامه عليه أخت لكل منهن وهن كالآتى:

١ـ أم كلثوم بنت أبى بكر وأختها عائشة أم المؤمنين.

٢ـ حمنة بنت جحش وأختها زينب بنت جحش وأمهما أميمة بنت عبد المطلب عمة الرسول.

٣ـ الفارعة بنت أبى سفيان وأختها أم حبيبة.

٤ـ رقية بنت أبى أمية وأختها أم سلمة.

وكان له من الأولاد أربعة عشر ولداً منهم محمد الذى لقب «السجاد» لكثرة عبادته وقد قتل يوم الجمل وقد التحق بجيش عائشة تابعاً لأبيه ولذلك قال على لما عرف قتله: هذا السجاد قتله بره بأبيه.

ومن أولاده عمران ومنهم عيسى وكان ناسكاً ويعقوب وكان جواداً كأبيه وموسى وكان فيما بعد من قواد عبد الملك بن مروان ومن بناته عائشة بنت طلحة وهى من أبرز سيدات عصرها وقد تزوجها مصعب بن الزبير.



«٦»

الزبير بن العوام

هو سادس العشرة المبشرين بالجنة وقد ولد سنة ٢٨ قبل الهجرة وتوفى سنة ٣٦هـ.

نسبه وصلته بالرسول

هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد وأمه صفية بنت عبد المطلب فهى عمة الرسول أسلمت وهاجرت وعن عبد الله بن الزبير أن أباه قال له: يا بنى كانت عندى أمك أسماء وعند الرسول أختها عائشة وبينى وبينه من الرحم ما قد علمت فعمة أمى «أم حبيبة بنت أسد» جدته وأمى عمته وآمنة بنت وهب أم الرسول هى أخت جدتى هالة بنت وهب وزوجته خديجة بنت خويلد عمتى وكان الزبير طويل القامة تصل رجلاه إلى الأرض إذا ركب الدابة.

ارتباطه بطلحة

ولد الاثنان فى عام واحد وهو ٢٨ق، ولكل منهما صلة نسب أو مصاهرة مع الرسول وبكر الاثنان فى دخول الإسلام وآخى الرسول بينهما فى المؤاخاة التى حدثت بمكة وبينهما تشابه واسع فى الثراء والكرم وجمعهما الرسول فى الحديث الشريف طلحة والزبير جاراى فى الجنة واشترك الاثنان فى حرب الجمل ثم اعتزلاها ومات كل منهما شهيداً فى أعقاب اعتزالهما هذه الحرب ولايزال المفكرون حتى اليوم يتحدثون عن طلحة والزبير دائماً فى سياق واحد. وقد تربى الزبير على الشدة فقد مات والده وهو صغير، فأشرفت أمه على تربيته واتخذت من أخيها حمزة بن عبد المطلب قدوة تريد أن يكون ابنها مثله قوة وبطولة ومن هنا اتجهت فى تربيته إلى الشدة ولم تجعله يعرف تدليل الطفولة والصبا ولما عابها بعض أهلها على ذلك دافعت عن نفسها وذكرت أنها تقصد أن تربى قلبه على الصمود وجسمه على الفتوة حتى يكون أهلاً لمواجهة الخطوب والمشكلات.

دخوله الإسلام

كان الزبير ذكياً معتداً بشخصيته فلما ظهر الإسلام سرعان ما اهتدى إلى أنه

الدين الحق فأعلن إسلامه غير هياب ولا متردد وكان سنه آنذاك حوالى خمسة عشر عاماً ويذكرون أنه كان الرابع أو الخامس بين السابقين الأولين وقد تعرض الزبير لقسوة شيوخ أسرته الذين تعرضوا له ورفضوا دعوة الإسلام ويروى أن عمه كان يلفه فى حصير ويثير الدخان حوله حتى يوشك أن يختنق وفى وسط هذا العناء كان يناديه: اكفر بدين محمد لتنجو من العذاب ولكن الزبير كان يجيب فى حزم: لا عودة للكفر بعد الإيمان وكل عذاب فى سبيل العقيدة يهون ويئس عمه منه فأطلق سراحه وهاجر الزبير إلى الحبشة أولاً ثم إلى المدينة وكان الزبير بالشام فى تجارة له حينما بدأت هجرة الرسول إلى المدينة ويروى أن الرسول فى هجرته قابل الزبير عائداً من تجارته بالشام فكسى الزبير الرسول وأبا بكر ثياباً بيضاء.

ولقد امتد العمر بالزبير فشهد الفتوحات الواسعة فى عهد عمر وعثمان كما شهد اتساع الإسلام فى الجزيرة العربية فى عهد الرسول ولكن الزبير كان متعففاً عن الإمارة فما ولى إمارة قط ولا جباية ولا خراجاً وكانت حياته بين التجارة والجهاد فى سبيل الله.

لمحة من صفاته

لعل أشرف الصفات التى وصف بها الزبير أنه كان من حوارى الرسول والحوارى هو الصديق الحميم خالص النية نقى السريرة وفى بعض الشروح أن الحوارى هو ناصر النبى وصفيه بوجه خاص وكان الرسول ﷺ يقول: **لكل نبى حوارى وحواريى الزبير بن العوام**[1]. وتبعاً لذلك روى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قوله: والذى نفسى بيده إن الزبير لخير الصحابة فيما أعلم وإنه كان أحبهم للرسول وإن المتتبع لتاريخ الزبير وحياته يجد أنه كان شديد التوكل على الله والثقة فى دعوته حتى فى الشدائد التى قد تزعزع الفكر وقد ظل هذا الخلق معه حتى آخر لحظة فى حياته فيروى أنه فى أخريات حياته كان يوصى ولده بقوله: إذا أعجزك أمر فاستعن بمولاى فكان ابنه عبد الله إذا وقع فى كربة هتف يا مولى الزبير أعنى وكان غالباً تقضى حاجته.

---

(١) متفق عليه.

صحبته للرسول لمقابلة الجن

يقول الله تعالى: **﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا: أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين. قالوا: يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين﴾** [الأحقاف ٢٩-٣٢].

هذه الآيات الكريمة تتحدث عن لقاء بين الرسول ووفد من الجن وأن الجن اهتموا بسماع القرآن وذهبوا عقب التلاوة ينذرون وفود الجن ويدعونهم إلى الإسلام ليغفر الله ذنوبهم ومن لا يستجيب فله سوء العاقبة ويروى المحب الطبرى فى «الرياض النضرة» أن الزبير رافق الرسول فى هذا اللقاء وأن الزبير أحس بالخوف والجن تملأ مكان الاجتماع يرونه ولا يراهم فخط الرسول له دائرة وأجلسه وسطها فزال عنه الخوف.

ورعه وجوده

كان الزبير شديد الورع فهو بالتأكيد سمع عدة من الأحاديث من الرسول صلوات الله عليه أو من أبى بكر أو من عائشة ولكنه لم يحدث عن الرسول أى لم يرد عنه ما سمعه من أحاديث وذلك لأنه سمع الرسول ﷺ يقول: من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار فخشى ألا يورد نص كلام الرسول ﷺ فيجلب ذلك عليه العقاب ومن هنا تورع عن رواية الحديث نهائياً.

ربح الزبير من التجارة مالاً وفيراً وأصبح فى عداد الأغنياء عن طريق التجارة ولكنه كان قليل الحرص على الثراء فكان واسع الصدقة شغوفاً بالعطاء ولكن أرباحه عن طريق التجارة شغلت الناس وقد سئل مرة بم أدركت الثراء فى التجارة فأجاب: لأنى لم أشتر معيباً لأتاجر فيه ولم أتاجر سعياً وراء الربح والله يبارك لمن يشاء وكان الزبير كثير البر والصدقة ويروى أن أحد الصحابة قال: سألت مجلساً فى أكثر من عشرين رجلاً: من كان أكرم الناس على عهد الرسول؟ فقالوا: الزبير وعلى.

بطولاته

وقد امتدت بطولات الزبير على مدى تاريخه فهو بطل قبل الهجرة وبطل فى جميع الغزوات وبطل فى الفتوحات. فى مطلع الإسلام وعقب دخول الزبير فى دين الله سرت فى مكة إشاعة بأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد قتل ولما سمع الزبير ذلك ثار ثورة عارمة وتخلص من أكثر ملابسه وسل سيفه وخرج ينوى قتل من يستطيع من المشركين. فما للحياة قيمة بعد قتل الرسول وأراد أن يتأكد من الخبر قبل أن يقدم على قتل أحد فذهب إلى حيث توقع الرسول فالتقى به وسأله الرسول: مالك يا زبير؟ فأجاب: سمعت أنك قتلت فسأله الرسول: وماذا كنت فاعلاً لو صح الخبر؟ فأجاب كنت سأحمل سيفى فى رقاب المشركين حتى يقتلونى فضحك له الرسول وخلع بعض ملابسه وألبسها للزبير ودعا له.

ومن أجل هذا الموقف أصبح من المتواتر أن يقال: إن الزبير أول من سل سيفاً فى سبيل الله. وعندما هاجر المسلمون إلى يثرب وبدأ الصراع ضد أعداء الإسلام كان الزبير علماً وركناً هائلاً من أركان الإسلام فى جميع الغزوات كما قال عمر ابن الخطاب وإن كان بعض الرواة ينسب هذا القول للرسول عليه السلام ففى رواية عن عمر وقبيل غزوة بدر يروى أن الرسول قال لأصحابه من يأتى بنى أمية فيأتينى بخبرهم؟ فتقدم الزبير لذلك وكانت مكانته التجارية تيسر له أن يسأل عن مسيرة قافلة مكة التجارية ولقد نقل للرسول أدق الأنباء.

الزبير فى غزوة بدر

كان الزبير فى غزوة بدر علماً بزيه وقوته ويروى أنه التقى ببطل من أبطال قريش اسمه عبيدة بن سعيد بن العاص وكان هذا مغروراً بقوته كما كان يلبس الدروع والزرد حول جسمه كله فلا يبقى منه إلا عيناه وقد استطاع الزبير أن يصوب سهمه تجاه عينيه فأصابه فيها إصابة أودت به.

وكان الزبير فى هذه الغزوة يلبس عمامة صفراء وقد روى أن الرسول ﷺ قال: إن الملائكة نزلت يوم بدر على هيئة الزبير. وعقب هزيمة قريش فى بدر أراد الرسول أن يتعرف أحوالهم ونواياهم فاختار عشرة من المسلمين بينهم خبيب بن عدى وكان بطلاً عابداً وناسكاً وأحست قريش بهم فجمعت لهم رجالها فى حنق وثورة ودارت حرب غير متكافئة سقط فيها ثمانية من أبطال المسلمين وأسر خبيب

وتنافس رجال قريش في التنكيل به لما كان له من مواقف فى بدر فقرروا قتله وصلبوه على جذع نخلة وقتلوه بسهامهم وتركوا الجثمان مصلوباً ووقف العديد من المشركين يحرسون الجثمان حتى لا ينزله أحد ليظل شفاء لصدورهم التى كانت الهزيمة قد غمرتها واتجه الرسول لإنقاذ جثمان خبيب فصاح فى الصحابة: أيكم يحمل جثمان خبيب من خشبته وله أحسن الجزاء من الله؟ فقال الزبير: أنا يا رسول الله ومعى صاحبى المقداد بن عمرو واتجه البطلان إلى حيث الجثمان الذى كان يقوم بحراسته أربعون رجلاً من قريش وانتهز الزبير غفلة من الحرس وانقض بسرعة على الجثمان فحمله على فرسه وبدأ رحلة العودة وحينئذ رآه الحراس فأسرعوا إليه ولكنه صاح فيهم: أنا الزبير وصاحبى المقداد فاستعدوا لنضال مرير أو انصرفوا عنا فليس إلى تسليم الجثمان من سبيل وأحس رجال قريش أن محاولة استعادة الجثمان ستكلفهم الكثير فآثروا السلامة وانصرفوا وقدم الزبير والمقداد ومعهما الجثمان فنزل جبريل ليقول للرسول: إن الملائكة لتباهى بهذين من أصحابك.

فى غزوة أحد

فى غزوة أحد قاتل الزبير قتالاً شديداً وعندما أخطأ الرماة وتركوا أماكنهم كشفوا ظهور المسلمين وتسبب عن ذلك قتل عدد كبير من المسلمين ورأى الزبير مصرع خاله حمزة بن عبد المطلب والتمثيل بجثمانه ولكنه ظل ثابتاً ويروى أنه قال: لقد رأيتنى أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير ولكن إسلامه منعه من الانقضاض على النسوة كما منعه من التمثيل بقتلى المشركين فليس هذا ولا ذاك من الإسلام. وعندما أصيب المسلمون فى أحد وسقط منهم سبعون شهيداً توقع الرسول أن تحاول قريش الانقضاض على المسلمين وهم فى حال من الحزن والشدة ولذلك ندب الرسول أبا بكر والزبير لقيادة فيلق من المسلمين ليتعقبوا جيش قريش فى زهو ليظهروا أن المسلمين قوة وقد كان هذا من الأسباب التى جعلت قريش تقنع بما حدث وتعود إلى مكة..

الأحزاب وبنو قريظة

وفى غزوة الأحزاب كان له دور بارز فى الدفاع عن المدينة ولكن دوره كان أبرز فى حصار بنى قريظة فإن الحصار كان قد طال واحتاج الرسول إلى من نسميهم «فدائيين» ليضعوا حداً لمقاومة بنى قريظة خلف الحصار فاختار لذلك على ابن أبى طالب والزبير وأمام الحصن المنيع صرخ الزبير: والله لنذوقن ما ذاق حمزة أو لنفتحن عليهم حصنهم وبقوة هائلة عالجا باب الحصن فخلعاه وفتحا الطريق للمسلمين.

فى حنين واليرموك

رأى الزبير «مالك بن عوف» بعد هزيمته فى غزوة حنين يستعد لمفاجأة ضد المسلمين فاندفع الزبير نحو هذا الحشد وشتته وفل عزيمته وهكذا نجد الزبير فى جميع المشاهد أبان حياة الرسول بطلاً مغواراً ومناضلاً فذاً كسب بسيفه وبقوته النصر للمسلمين فى عدة مواقف. واصل الزبير مواقف البطولة بعد وفاة الرسول فاشترك بنصيب كبير فى الفتوحات الإسلامية فى عهد عمر بن الخطاب وأمام جحافل الروم الكثيرة العدد الوافرة العدة العظيمة التدريب وقف الجيش الإسلامى الذى لم يكن كجيش الروم من حيث العدد والعدة والتدريب ولكنه كان يفوقه فى الروح المعنوية والاستعداد للتضحية وكان شعار جيش المسلمين: النصر أو الشهادة وفى مطلع معارك الروم تراجع جيش المسلمين أمام جيوش الروم الصاخبة فصاح أصحاب الرسول فى الزبير: يا زبير ألا تشد فنشد معك؟ فارتفع صوت الزبير: الله أكبر وتقدم غير هياب، وشد معه أصحاب الرسول وكان ذلك مطلع الانتصار وينسب إلى عمر أنه قال عندما بلغه هذا الموقف من الزبير: الزبير ركن من أركان الإسلام.

فى فتح مصر

وعندما سار عمرو بن العاص لفتح مصر واجه جيوش الروم التى كانت قد تركزت فى مصر بعد أن استولى المسلمون على الشام ودارت المعارك بين المسلمين وبين الروم فى العزما ثم فى أم دنين وأدرك عمرو بن العاص صعوبة التقدم والنصر بجيشه فأرسل للخليفة عمر بن الخطاب يطلب منه مدداً فأرسل له الخليفة أربعة آلاف جندى بقيادة أربعة من مشاهير الصحابة هو الزبير وعبادة بن الصامت

والمقداد بن الأسود ومسلمة بن مخلد وكتب الخليفة إلى عمرو يقول له: أمددتك بأربعة آلاف، الواحد منهم بألف رجل. وفى معارك حصن «بابليون» أبلى الزبير أروع بلاء فعندما تعثر الفتح نادى الزبير: إنى أهب نفسى لله تعالى فإما النصر وإما الشهادة فى سبيل الله واستجاب له عدد من الأبطال وكان ذلك مطلع الفتح المبين. هذا الرجل الذى خاض كل هذه المعارك طيلة عمره من الصبا حتى قبيل وفاته تعرض جسمه لعدد هائل من الضربات والطعنات فماذا نرى فى جسمه لو اطلعنا عليه؟ هذا السؤال يجيبنا عليه أحد رفاق الزبير وكان هذا الصديق قد أتيح له أن يرى جزءً كبيراً من جسم الزبير وهو يصف ذلك فيقول: صحبت الزبير بن العوام فى بعض أسفاره ورأيت جسده فرأيته مجذعاً بالسيوف كثير الثقوب من ضربات الحراب وفى صدره أمثال العيون الغائرة من الطعن والرمى قال الرجل للزبير: لقد شاهدت بجسمك ما لم أره فى أى جسم آخر فأجاب الزبير: والله ما منها جراحة أو طعنة إلا فى سبيل الله.

موقفه بعد عمر

بعد أحداث الفتنة التى انتهت بقتل عثمان أحس الذين رفعوا أصواتهم بالشكوى منه كالسيدة عائشة وطلحة أنهم اشتركوا فى دمه لأن الثوار المتمردين قوى جانبهم بأصوات هؤلاء الصحابة ومن هنا اتجهت السيدة عائشة وطلحة للمطالبة بالقصاص من القتلة الذين كان أكثرهم قد بايعوا الإمام علياً وانضموا إلى جيشه أما الزبير فكان بريئاً تماماً من دم عثمان لأنه لم يشارك فى التمرد عليه ولكن ابنه عبد الله دفعه إلى السير للبصرة ليشترك فى حرب ضد على هى الحرب التى سميت «معركة الجمل» وانفلت الزبير عائداً من جيش الجمل فهو لم يرد أن يدنس طهارته بدم حرام ولكن بعض الذين كانوا يريدون للفتنة أن تزيد اشتعالاً غضبوا من موقف الزبير وقرروا قتله.

وقد لاحظ الزبير فى أثناء عودته أن رجلاً يلاحقه فشك الزبير فيه فأقبل عليه وسأله لماذا تلاحقنى؟ فقال الرجل: «واسمه ابن جرموز» اذكر الله فلان الزبيرُ له إذ لجأ إلى الله ولكن الزبير لاحظ متابعة الرجل له فقال: يذكر بالله وينساه وغافل ابن جرموز الزبير وطعنه طعنة قاتلة، قيل وهو يصلى وقيل كان الزبير قد غفا من الجهد تحت شجرة فقتله الرجل وقيل اشترك فى قتله جماعة مع ابن جرموز

وعندما عرف الإمام على نبأ قتل الزبير هتف: بشروا قاتل الزبير بالنار وجىء إلى على بسيف الزبير فبكى وقبل السيف وقال: سيف طالما والله جلابه صاحبه الكرب عن رسول الله.

أسرة الزبير

يمكن أن نسمى أسرة الزبير «أسرة الإسلام» فأمه صفية أسلمت وهاجرت وأخواه الشقيقان السائب أم حبيب أسلما وقد هاجر السائب مع النبى ﷺ واستعمله أبو بكر وقتل فى اليمامة وأسلم كذلك أخواه لأبيه عبد الرحمن وزينب وقد استشهد عبد الرحمن فى اليرموك وكان للزبير أولاد كثيرون سماهم جميعاً بأسماء الشهداء فالشهادة عنده كانت مبعث الأمل والفخر ومن هؤلاء الأولاد عبد الله بن الزبير الذى يتجه أكثر المؤرخين إلى أنه كان خليفة المسلمين مدة ثمانى سنوات تبدأ بعد يزيد بن معاوية أى حوالى ٦٥هـ حتى قتله جنود عبد الملك بن مروان سنة ٧٣ هـ ومن أولاده كذلك المنذر وعروة وحمزة وجعفر ومصعب خالد. وكانت لأسرة الزبير مكانة عند آل البيت ولذلك روى أن الحسن بن على أوصى أولاده بأن يتزوجوا من آل الزبير ويزوجوهم.

«٧»

سعد بن أبى وقاص

هو سعد بن مالك بن وهيب «أو أهيب» بن عبد مناف بن زهرة وسعد بذلك قريب النسب بالسيدة آمنة أم الرسول صلوات الله عليه فهى آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة.

فوهب والد السيدة آمنة أخو أهيب جد سعد .وأبوهما عبد مناف بن زهرة وكان الرسول لذلك يقول عن سعد «ذاك خالى فليرنى امرؤ خاله» فإن أهل الأم عند العرب أخوال كما ذكر ابن الأثير فى «أسد الغابة» ومالك أبو سعد كان يكنى بابنه وقاص وقد اختفى اسمه «مالك» تقريباً وأصبحت شهرته «أبو وقاص» ولهذا فسعد دائماً يعرف بأنه سعد بن أبى وقاص وقد دخل سعد الإسلام ويروى عنه أنه قال: رأيت فى المنام أنى فى ظلمة لا أبصر شيئاً وفى الأفق البعيد رأيت قمراً فسرت إليه محتمياً من شدة الظلام فرأيت فى نهاية مسيرتى على بن أبى طالب وأبا بكر قد سبقانى إليه فما أن استيقظت حتى بدأت أفكر فى هذا الأمر وسألت أبا بكر عن هذه الرؤيا فقال لى: إن محمد بن عبد الله الصادق الأمين يدعو لدين جديد ويرفض عبادة الأوثان وقد اتبعته أنا وعلى بن أبى طالب فادخل هذا الدين يا سعد فاعتنقت دين الإسلام ويضيف سعد قوله فى رواية جابر بن عبد الله: لقد رأيتنى وأنا ثلث الإسلام وفى رواية أخرى أتى على يوم وأنا ثلث المسلمين. وأم سعد واسمها «حمنة» من بنى أمية كانت شخصية قوية وقد رأت هذه الأم ابنها وهو يقرأ القرآن بصوت خفيض ويقوم بصلوات لا عهد لها بها فسألته عن ذلك فأعلمها ودعاها للإسلام وكانت الدعوة لا تزال سراً فثارت أمه عليه وطلبت منه أن يكف عن ذلك وأن يدعو إلى دين أبائه وأجداده وكان سعد باراً بأمه ولكنه أحس أن العقيدة شىء والبر شىء آخر وأن لا شىء يعيده مرة أخرى إلى الأصنام بعد أن ذاق حلاوة الإيمان فلما رأت أمه تمسكه بعقيدته الجديدة هددته وقالت له: لتدعن دينك أوْلا آكل ولا أشرب حتى أموت وحينئذ يعيرك الناس بى فلم يعبأ سعد لكلامها وقال لها: ما كنت لأدع عبادة الله مهما كانت النتائج وتحولت «حمنة» من التهديد إلى الواقع فصامت عن الطعام والشراب تماماً حتى أشرفت

على الهلاك. وحينئذ أخذه بعض أهله ليراها لعله يشفق عليها فيستجيب لرغبتها. وذهب لها سعد فرأى مشهداً رهيباً ولكن صلته بالله كانت أعمق فأصبح لا تهتز لأى مشهد يتنافى مع العقيدة فصاح بها قلائلا: والله يا أماه لو كانت لك مائة روح وفى رواية لو كانت لك سبعة أرواح فخرجت واحدة إثر أخرى ما تركت دينى. فكلى إن شئت أو لا تأكلى. ورأت «حمنة» إصرار ابنها على موقفه وأن التهديد لن يثنيه عن عقيدته فعادت تأكل وتشرب ونزل فى قصة سعد مع أمة قوله تعالى: **﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهدك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾** [سورة العنكبوت الآية الثامنة] ولم تكن عودة «حمنة» للطعام استسلاماً منها بل أنها استعادت صحتها لتقوى على مناهضة ابنها يقول سعد عدت يوما إلى البيت فوجدت أمى تصيح على الباب: ألا من أعوان يعينوننى على سعد من عشيرتى أو من عشيرته فأحبسه فى بيت حتى يموت أو يدع هذا الدين ويقول سعد: لقد رجعت وابتعدت عن بابها وعن دارها حتى لا أصطدم بها ثم بعثت لى فرجعت فكانت تلقانى مرة بالهدوء ومرة بالهجوم والشر فما أقسى ما احتمل سعد من أقرب الناس إليه.

أولاد سعد

يبدو من دراسة حياة سعد بن أبى وقاص أنه كان فى مطلع عمره قليل الأولاد فقد روى أنه فى عام الفتح مرض واشتد به المرض فعاده الرسول ﷺ فقال له سعد: يا رسول الله إن لى مالاً كثيراً ولا ترثنى إلا ابنة لى أفأتصدق بثلثى مالى؟ فقال الرسول: لا فقال سعد: أفأتصدق بنصفه؟ قال الرسول: لا قال سعد: فالثلث؟فأجابه الرسول: الثلث والثلث كثير، ثم منحه الله عددا من البنين.

لمحة من صفاته

أوردت المراجع مجموعة هائلة من الصفات الطيبة التى تحلى بها سعد بن أبى وقاص وسنذكر فيما يلى لمحات من هذه الصفات:

* **محدث**: روى سعد كثيراً من الأحاديث عن الرسول ﷺ ويذكرون أن له فى الصحيحين ٢٧١ حديثاً وروى عنه أولاده مجموعة منها كما روت عنه عائشة رضى الله عنها وروى عنه عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر ومن كبار التابعين روى عنه سعيد بن المسيب والأحنف بن قيس وغيرهما.

ويذكرون عنه أنه كان دقيقاً فى روايته عن الرسول. فقد روى أن عبد الله بن عمر سمع أن سعداً يقول إن النبى ﷺ مسح على الخفين عند الوضوء فذهب عبد الله إلى أبيه يسأله عما سمع من سعد فقال له عمر: إذا حدثك سعد عن رسول الله فلا تسأل غيره.

* **مرهف الحس:** كان سعد كثير البكاء من خشية الله وكان إذا استمع للرسول صلوات الله عليه يخطب المسلمين ويعظهم فاضت عيناه من الدمع.

* **الناس سواسية:** يروى أن سعداً دخل المسجد مرة فى حياة الرسول وكان هناك مجلس فيه سلمان الفارسى وبلال الحبشى وصهيب الرومى واتجه سعد للصلاة وفى أثناء صلاته سمع أعرابياً يقول أتحلق العلجة «غير العرب» كأنهم من الأوس أو الخزرج فاضطرب سعد لهذا التعبير وتعجل فى صلاته فلما انتهى منها ذهب للرجل وصاح به يعنفه ويقول له: يا عدو نفسه كيف تقول ذلك لأصحاب رسول الله أو لم تعرف أن الإسلام سوى بين البشر؟ وجره إلى الرسول وشكاه إليه فعظم ذلك على الرسول وجمع المسلمين وخطب فيهم قائلاً: أيها الناس إن الرب واحد والدين واحد وأبو البشرية واحد ومن أسرع به عمله لم يبطئ به نسبه ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه .

* **يعدل ألف فارس:** روى عن الرسول أنه قال: سعد بن أبى وقاص يعدل ألف فارس وتذكر المراجع أنه فى بعض المواقف الحرجة لم يبق مع الرسول إلا طلحة وسعد.

* **لا يحمل ضغناً لأحد:** روى أن الرسول ﷺ كان جالساً مرة مع أصحابه ثم نظر إلى الفضاء البعيد وصمت عن الحديث إلى من معه فكأنه كان يتلقى همساً أو وحياً ثم التفت إلى أصحابه وقال: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة وأخذ الصحابة يتلفتون هنا وهناك ليعرفوا ذاك الذى اتجهت له هذه البشرى السعيدة وبعد قليل طلع عليهم سعد بن أبى وقاص ويروى أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال لسعد مرة: ألاتدلنى على ما تتقرب به إلى الله من عبادة وعمل؟ فقال سعد: لا شىء أكثر مما نعمل جميعاً عبادة وسلوكاً غير أنى لا أحمل لأحد ضغناً ولا سوءً.

* **القرآن ينزل فيه:** ذكرنا من قبل الآية الكريمة **﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسنا...﴾** وأنها ارتبطت بالصراع الذى كان يدور بين سعد وأمه وتذكر الرواية أن

آية سورة لقمان نزلت فيه أيضاً وهى قوله تعالى: **﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدينا معروفاً﴾** [سورة لقمان الآيتان: ١٤ـ١٥] وفى غزوة بدر قتل سعد بن أبى وقاص سعيد بن العاص وأخذ سيفه فلما عرف الرسول ذلك قال له: اذهب فضع السيف مع الغنائم فاستجاب سعد وبعد قليل نزلت على الرسول سورة الأنفال فقال الرسول لسعد اذهب فخذ السيف.

* **وصف عمرو بن معد يكرب له:** كان عمرو بن معديكرب من حكماء العرب وقد سأله عمر بن الخطاب مرة عن سعد بن أبى وقاص فقال عمرو: سعد متواضع فى حياته عربى من بزته أسد فى ثيابه يعدل فى القضية ويقسم بالسوية ويعطف على الناس عطف البررة.

* **قليل الأطماع:** عندما شبت الفتنة حول الخلافة فى أخريات عهد عثمان وبعد قتله لجأ سعد إلى الاعتزال ويروى أن ابنه عمر بن سعد أقبل عليه فرآه سعد قبل أن يصل إلى مجلسه وكأنما أحس سعد بإحساس ابنه فقال: أعوذ بالله من شر الراكب فلما وصل عمر إلى مجلس أبيه قال له: يا أبت نزلت فى بيتك وتركت الناس يتنازعون الملك فضرب سعد صدره وقال: اسكت سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله يحب العبد التقى الخفى[1].

عمر سعد بن أبى وقاص

عاش سعد طويلاً ولذلك كانت له علاقات مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه ومع الخلفاء الراشدين جميعاً سلماً وحرباً. ولقد طالت وقفات سعد بن أبى وقاص مع الرسول ﷺ وطال نضاله عنه وعن الإسلام وسنذكر فيما يلى نبذة تاريخية نثبت فيها أبرز هذه المواقف.

يقول المؤرخون إن هناك أوليات تنسب إلى سعد بن أبى وقاص أى وقفات إسلامية لم يقفها أحد قبله فمن ذلك أنه كان أول من أسال دماً فى الإسلام فيروى أنه كان يصلى فى شعب من شعاب مكة ومعه عمار بن ياسر وسعيد بن زيد

---

(١) رواه مسلم.

وعبد الله بن مسعود وعلمت بصلاتهم جماعة من المشركين فجاء لهم أبو سفيان والأخنس بن شريم وعبد الله بن خطل وأخذوا يهزءون بالمصلين ويسخرون من دينهم ويسبونهم وكان عبد الله بن خطل أشدهم إيذاء إذا اندفع يعتدى على أحد المسلمين ولم يحتمل سعد بن أبى وقاص أن يرى هذا العدوان فتناول عظمة كانت قريبة منه وضرب بها عبد الله بن خطل فأسال دمه وكان ذلك أول حدث من نوعه فى الإسلام فاشتهر عن سعد بن أبى وقاص أنه أول من أسال دماً فى سبيل الله.

ومن أوليات سعد كذلك أنه خرج ضمن سرية عبيدة بن الحارث إلى بطن رابع لاستطلاع أخبار قريش وواجهت السرية جماعات من قريش تحرشت بالمسلمين وأرادت العدوان علهم ولم يقبل سعد أن يتراجع أمام تعالى رجالات قريش وسرعان ما أعد سهامه وأطلقها على المعتدين فكان بذلك أول من رمى سهماً فى سبيل الله وتقول عائشة رضى الله عنها: سهر رسول الله ﷺ عقب مقدمة المدينة كأنما كان يحس خطراً فقال: ليت رجلاً صالحاً من أصحابى يحرسنى الليلة. قالت عائشة فبينما نحن كذلك إذ سمعنا خشخشة سلاح فسأل الرسول: من هذا؟ وكان الرد: أنا سعد بن أبى وقاص فقال له الرسول: وما جاء بك الساعة؟ فأجاب سعد: وقع فى نفسى خوف عليك فجئت أحرسك الليلة. فدعا له الرسول ونام وهو مطمئن وأبلى سعد بن أبى وقاص بلاء حسناً فى غزوة بدر ويقول عنه عبد الله بن مسعود رأيت سعداً يقاتل يوم بدر قتال الفارس للراجل وذلك يفيد التعالى والقدرة. وفى غزوة أحد ثبت سعد مع النبى ﷺ وجلس أمامه يحميه بنفسه ويزود عنه الأعداء وكان سعد يصيح آنذاك: اللهم سهمك فارم به عدوك وكان الرسول يؤيد سعداً فيقول: اللهم استجب لسعد، اللهم سدد رميته وأجب دعوته. وعندما تأزمت الأمور حول الرسول اتجه له الرسول وقال: ارم سعد فداك أبى وأمى ويقول على بن أبى طالب ما جمع الرسول ﷺ أبويه لأحد غير سعد بن أبى وقاص وفى غزوة أحد أيضاً رأى سعد أحد المشركين وهو مالك بن زهير يضرب فى المسلمين ويقتل منهم فترصد له سعد وضربه بسهم فقضى عليه. وكان سعد بن أبى وقاص من خيرة أبطال المسلمين فى غزوة بنى قريظة وقد نال منهم وكان من الذين ألزموا بنى قريظة بالاستسلام وفى فتح مكة كان سعد بن أبى وقاص قائداً بارزاً من قواد المهاجرين وكانت البطولة والحكمة سمة قيادته وفى يوم حنين كان سعد حاملاً إحدى رايات المهاجرين وقد ثبت مع الرسول عندما اضطرب بعض المسلمين ومنوا

بالهزيمة فى بداية هذه الغزوة. وهكذا كانت ملازمة سعد للرسول ﷺ متصلة من مطلع الإسلام حتى وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه لقد كان قريبه نسباً وصاحبه إسلاماً وأحد أبطاله الذين واجه بهم الباطل وحقق بهم النصر.

سعد مع أبى بكر

كان سعد - بالإضافة إلى بطولاته العسكرية - قديراً فى الشؤون الإدارية ولذلك اختاره أبو بكر عاملاً على هوازن وكانت هوازن حديثة عهد بالإسلام فقد اشتركت مع الطائف فى الصراع ضد المسلمين فى غزوة حنين والطائف ويمكن أن نفهم أن اختيار سعد عاملاً على هوازن نتج من إدراك أبى بكر أن مثل هذا العمل آنذاك كان يحتاج لقدرة عسكرية وقدرة إدارية وهما متوافرتان فى سعد بن أبى وقاص.

ومع عمر بن الخطاب

أما دور سعد مع عمر بن الخطاب كان طويلاً ومهماً. فى مطلع خلافة عمر كانت الانتصارات على الروم قد بدأت تظهر وكانت جبهة الفرس قد بدأت تتأرجح وبدأ الفرس يهددون المسلمين ويتوعدونهم واصبح واضحاً أن الحرب وحدها هى التى تحسم الأمور بين المسلمين وبين الفرس وقد اتجه عمر بن الخطاب إلى أن يقود جيش المسلمين بنفسه لإدراكه خطورة هذه الجبهة فأرسل إلى عماله وولاته بالبلاد المختلفة لإمداده بالرجال والسلاح والأموال وبدأت الإمدادات تفد إلى المدينة المنورة وبدأ عمر يتحرك قائداً للجيش تجاه فارس ولكن أغلبية زعماء المسلمين أشاروا عليه أن يبقى فى العاصمة ويبعث على القيادة بطلاً من أبطال المسلمين ويمده بالجنود والسلاح فإن أصيب فى المعركة أوفد الخليفة رجلاً آخر..
والتزم عمر بهذه الشورى ورأى أنها أصلح بالنسبة لحروب قد تطول وتحتاج إلى مدد متصل ورعاية طويلة وأخذ عمر وأصحاب رسول الله يفكرون فى القائد البطل الذى تستند إليه هذه المهمة العظيمة وفى هذه الأثناء جاء إلى عمر كتاب سعد من هوازن وفيه يقول سعد: إنه يبعث إليه مجموعة من الأبطال كلهم نجدة ورأى وعندما تلا عمر بن الخطاب سعد، صاح به الصحابة: قد وجدناه. قال عمر: من هو؟ قالوا: سعد بن أبى وقاص فانتهى الأمر إلى اختياره وأرسل عمر فاستدعاه وأمره على الجيوش الزاحفة إلى العراق وفارس.

وصية عمر لسعد

ولم ينس عمر بن الخطاب أن يقدم وصية لسعد فى هذا الموقف الخطير وكأنما خشى على سعد من الغرور فاتجه له يقول: يا سعد بن أهيب. . لا يغرنك أن قيل خال رسول الله وصاحبه فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته والناس شريفهم ووضيعهم عند الله سواء يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح. . اكتب إلى بجميع أحوالكم وموقف عدوكم منكم. . واجعلنى بكتبك كأنى أنظر إليكم وأوصاه كذلك أن يترفق بالمسلمين وأن يرسل العيون ليتعرف على العدو وأن يختار مساعديه من خيرة الأبطال. وبدأ سعد خطواته نحو هذه المعارك الضارية وكان دائماً شديد الصلة بالخليفة يكتب له ويتلقى سائله وكان عمر يقف فى مركز الدائرة يستشير الصحابة حوله ويرسل إلى سعد بما يستقر عليه الأمر وقد أبلى جيش المسلمين بقيادة سعد أعظم البلاء فى معركة القادسية التى استمرت أربعة أيام وقضى فيها على جيش الفرس بين قتيل وجريح وأسير ومما يذكر أن الفرس كانوا يسخرون من الجيش الإسلامى قبل معركة القادسية وكانوا يشبهون سهام المسلمين بالمغزل وقد روى أبو رجاء الفارس عن أبيه عن جده قال: حضرت وقعة القادسية فلما رمتنا العرب بالنبل جعلنا نقول: «دوك. . دوك» أى مغازل. فما زالت بنا تلك المغازل حتى أزالت أمرنا.

مع عثمان وعلى

لما جاء عهد عثمان بن عفان أدرك الخليفة أن سعد بن أبى وقاص هو أكثر القادة معرفة بشؤون العراق فولاه الكوفة من جديد وأطلق يده فى شؤون المنطقة كلها وما كان أجدره بذلك فلما جاءت الفتنة التى فشت فى السنين الأخيرة من عهد عثمان اعتزل سعد هذه الفتنة وأمسك بلسانه فلم يهاجم الخليفة بكلمة فلما قتل الخليفة وقام صراع بين على ومعاوية لم يشترك سعد فيه وقال قولته الشهيرة عندما دعى للاشتراك فيها: أنه يريد سيفاً إذا ضرب به الكافر قطع وإذا ضرب به المسلم رجع ومعنى هذا أنه لا يريد أن يضرب مسلماً بسيفه قط. وعندما أغراه ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبى وقاص بقوله: يا عم هنا مائة ألف سيف يرونك أحق بهذا الأمر، أعرض عنه وقال: لا أريد أمراً يحتاج فى تأسيسه إلى قطرة من دم المسلمين.

وفاة سعد

توفى سعد بن أبى وقاص عام ٥٤هـ وقبيل أمر أولاده بفتح خزانة كانت مقفلة فلما فتحوها أخرج منها رداء قديماً وطلب أن يكفن فيه قائلاً: ذاك رداء لقيت به المشركين يوم بدر.

من وصايا سعد لأولاده

تذكر المراجع التى بين أيدينا مجموعة من الوصايا المهمة تنسب إلى سعد بن أبى وقاص ومنها نقتطف سطوراً قليلة:

- يابنى إذا طلبت شيئاً فاطلبه بالقناعة فإن من لاقناعة له لم يغنه المال.

يابنى إياك والكبر وتذكر وأنت تغالب الكبر كيف بدأت وإلى أين تنتهى ومن كان فى نفسه كبر تخلى الله عنه.

- يابنى إياك والطمع فإنه فقر حاضر.

(٨)

أبو عبيدة بن الجراح

هو عامر بن عبد الله الجراح بن فهر بن مالك فيجتمع نسبه مع رسول الله ﷺ فى فهر. أمه أمية بنت غنم بن جابر بن عبد العزى وكنيته أبو عبيدة ولقبه الرسول: أمين الأمة ويذكرون من صفاته أنه كان طويلاً نحيلا خفيف اللحية وأنه كان بطلا مغواراً وفارساً شجاعاً كثير التواضع شديد الزهد وكان أبو عبيدة على صلة بأبى بكر ولما جاء الإسلام واعتنقه أبو بكر وحمل عبء الدعوة المبكرة إليه اتجه أبو بكر لدعوته وكانت طبيعة أبو عبيدة تكره الشرك وعبادة الأوثان ولذلك ما أن دعاه أبو بكر لعبادة الله الواحد الأحد وترك عبادة الأصنام وأخلاق الجاهلية حتى استجاب له وصحبه إلى الرسول حيث أعلن إسلامه فكان بذلك من السابقين الأولين وعانى أبو عبيدة من عدوان المشركين وفى قمتهم أبوه عبد الله بن الجراح الذى تصدى لأبى عبيدة وجعل حياته مرة وصعبة، ومن أجل هذا هاجر إلى الحبشة وبقى بها حتى هاجر الرسول الى المدينة فتحول أبو عبيدة إلى المدينة. وقد حضر أبو عبيدة المشاهد كلها وكان فيها فارساً شجاعاً وبطلاً مقداماً فترك آثار طيبة فى كل غزوة من غزوات الرسول. وفى غزوة بدر كان هذا الصراع المرير بين القلة المسلمة والكثرة المشركة وكان أبو عبيدة من الدعائم القوية التى اعتمد عليها جيش المسلمين ولكن أبا عبيدة واجه فى هذه المعركة أمراً خطيراً.

لقد كان أبوه متمسكاً بعبادة الأصنام وقد عيره المشركون بابنه الذى دخل الإسلام على غير رغبه الأب فكان فى اعتقادهم ابنا عاقاً وقد تأثر الأب بهذا الكلام فخرج ليشترك فى الغزوة وأعظم آماله أن يقتل ابنه الذى ترك عبادة الأصنام واعتنق الأسلام وفى قلب المعمعة وجد أبو عبيدة أن أباه يتصدى له وكلما أفلت الابن من أبيه استدار الأب ليواجه ابنه مرة أخرى وكله إصرار على القضاء عليه ووجد الابن أن أباه يعوقه عن أداء واجبه فتخلى عن علاقة الدم وضرب فى أعداء الإسلام بدون تمييز قريب النسب عن بعيد النسب وسقط الأب بضربة من الابن وبكى الابن لأن أباه حرم نعمة الاسلام ونزلت فيه الآية الكريمة ﴿**لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو**

أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾ سورة المجادلة [الآية ٢٢] وفى يوم أحد كان أبو عبيدة فارساً مقداماً أدى دوره أحسن أداء. ثم سمع الهاتف الذى يقول إن الرسول قد قتل فأسرع نحو الرسول فى لهفة ويقول أبو بكر: لقد أسرع تجاه الرسول ورأيت من الجانب الآخر رجلا يسرع نحو الرسول كذلك فلما التقينا عند رسول الله وجدت أن الرجل هو أبو عبيدة ووجدنا أن حلقتين من حلقات مغفر الرسول قد دخلتا فى وجنته فقال لى أبو عبيدة: أسألك بالله ياصاحب رسول الله أن تتركهما لى لأنزعهما وعض أبو عبيدة على الحلقتين فخلعهما ولكنا وجدنا فمه قد امتلأ بالدم فقد سقطت ثنيتاه وهو يعالج خلع الحلقتين وعاش أبو عبيدة أهتم وكان يفخر بالهتم الذى أصابه فى هذه الظروف. عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل أمة أمين وأن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح» رواه البخارى. وعندما جاء وفد نجران للرسول وأعلنوا إسلامهم طلبوا من الرسول أن يرسل معهم أحد الصحابة ليقرأ لهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويقضى بينهم فقال لهم الرسول: لأبعثن معكم رجلا أميناً، حق أمين، حق أمين.

وتقول الرواية إن كثيرين من المسلمين تمنى كل منهم أن يكون مبعوث الرسول مع وفد نجران لتتحقق له شهادة الرسول بأنه أمين، حق أمين ونظر الرسول هنا وهناك حتى التقى بصره ببصر أبى عبيدة فدعاه وقال له: اخرج معهم وعلمهم واقض بينهم. وأرسل الرسول صلوات الله وسلامه عليه سرية بقيادة عمرو بن العاص إلى أرض الشام وهى السرية التى تسمى «غزوة ذات السلاسل» وعندما وصل عمرو إلى المنطقة خاف أن يواجه جيشاً كبيراً من جيوش الروم فأرسل للرسول يطلب مدداً فأرسل له الرسول نخبة من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر بقيادة أبى عبيدة وأوصاه الرسول بوصية قصيرة ولكنها مهمة، هى: إذا قابلت عمرو بن العاص فلا تختلفا.. وصل أبو عبيدة ومن معه، والتقى بعمرو، فقالا لأبى عبيدة: أنا القائد العام وأنتم جئتم لعونى فأنتم تابعون لى وقال بعض رجال لأبى عبيدة: نحن تابعون لأبى عبيدة وهو رئيسنا وأميرنا ولكن أبا عبيدة حسم الأمر فقال: أنا ومن معى تحت إمرتك فمر بنا بما تشاء، والناظر فى هذا الموضوع يجد أبا عبيدة أميراً على المدد الذى يشمل أبا بكر وعمر وهذا شرف عظيم ويجده يكره الخلاف ويحب الإيثار وتلك أعظم الصفات التى ينبغى أن يتعلمها المسلمون وأن يعملوا بها. كان لأبى عبيدة يوم السقيفة موقف رائع فعندما

احتدم الخلاف بين المهاجرين والأنصار واتجه الأنصار إلى أن يكون الخليفة معهم فقال لهم أبو عبيدة: يامعشر الأنصار كنتم أول من آزر ونصر فلا تكونوا أول من بدل وغير فكانت هذه الكلمة القوية أعادت الرشد بهدوء إلى قلوب الأنصار. ولما تخلف على بن أبى طالب عن البيعة لأبى بكر ذهب له أبو عبيدة وقال له بلطف ويسر: يا ابن عم، إنك حدث السن، وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر، وإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق بفضلك ودينك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك، ولا شك أن هذه الكلمات فيها حكمة وفيها براعة ولهذا قال له على: لن ترى منى إلا ما يسر، ولن يرى أبو بكر إلا ما يرضيه. وفى مطلع الحروب بين المسلمين والروم فى الشام كان أبو عبيدة قائداً عاماً للجيوش الإسلامية الزاحفة ويروى أن عمرو بن العاص جاء إلى عمر بن الخطاب فذكر له قدراته الحربية، وطلب منه أن يرشحه لأبى بكر ليكون قائد جيوش المسلمين بالشام فقال له عمر: ماكنت لأكلم أبا بكر فى ذلك، وقدم عمرو على أبى عبيدة بالشام فأحسن أبو عبيدة استقباله ورحب به وقال له: يا أبا عبدالله، رب يوم قد شهدته يبارك الله فيه المسلمين برأيك وبمحضرك. وإنما أنا رجل منكم، لا أقطع برأى دونكم، فأعنى برأيك فيما ترى. فعرف عمرو مكانة أبى عبيدة.

وكان من أبرز صفاته، سماحة نفسه وعدم ميله للرياسة والسلطة فعندما اشتدت الأمور بين المسلمين والروم، أرسل أبو بكر خالد بن الوليد من العراق إلى الشام وجعل له القيادة العامة بدل أبى عبيدة فلما وصل خالد أحسن أبو عبيدة استقباله، ورحب به وسلمه القيادة وسار تحت إمرته، حتى تكللت جهودهم بالنجاح الباهر وفى أثناء ولاية خالد لجيوش المسلمين بالشام، توفى أبو بكر واصبح عمر خليفة المسلمين واتجه عمر إلى جعل قيادة الجيوش لأبى عبيدة بدلاً من خالد، وذلك لأن عمر كان يخاف أن يفتتن به الناس كما أن انتصارات المسلمين بالشام، جعلتهم يحتاجون إلى رجل إدارة وسياسة، أكثر من حاجتهم إلى رجل حرب، وعلى هذا كتب عمر إلى أبى عبيدة أن يتسلم القيادة العامة من خالد، ولكن أبا عبيدة أخفى كتاب عمر وظل يحارب تحت امرأة خالد ردحاً من الزمن إذ كانت هناك معركة ضارية تدور هى فى أدق الروايات معركة «أجنادين» وبعد أن انتصر المسلمون قدم أبو عبيدة خطاب عمر إلى خالد: فقال له خالد: يغفر الله

لك، جاءك خطاب أمير المؤمنين بالولاية، فلمَ لم تعلمنى وظللت تصلى خلفى والسلطان سلطانك، فقال أبو عبيدة لخالد: يغفر الله لك ياأخى، ما كنت لأكسر عليك انتصارك وتمنيت أن تعرف خبر الكتاب من سواى، ما سلطان الدنيا أريد ولا للدنيا نعمل، ومما يذكر أن خالد بن الوليد سلم القيادة لأبى عبيدة وسار تحت إمرته بكل ولاء وإخلاص على نحو ما فعل أبو عبيدة من قبل. وبعث الروم إلى أبى عبيدة رجلاً يعرض الصلح على المسلمين، وحضر الرجل وكان طويلاً أشقر اللون، يلبس ملابس ثمينة، فلما أقبل على المسلمين لم يهتموا به، ولم يأخذوا بمظهره، فصاح فيهم: أين أميركم؟ فقال له: هو ذا واشاروا إلى أبى عبيدة، وكان يجلس على الأرض معهم، فاتجه له مبعوث الروم، ودار بينهما الحوار التالى:

الرومى: هل أنت أمير العرب؟

أبو عبيدة: أنا قائد جيش المسلمين.

الرومى: ما يجلسك على الأرض؟ وهل إذا جلست على وسادة أو على بساط يحط من قدرك؟

أبو عبيدة: ليس عندى وسادة أو بساط أجلس عليه، ولست أهتم بأن أجلس على وسادة أو بساط، فنحن عبيد الله نمشى على الأرض ونجلس عليها ولا ينقصنا ذلك أجراً أو مكانة، فهلم حاجتك. وكان تأثر الرومى بهذا المنظر شديداً، فعاد يصفه إلى قومه، ويوضح صعوبة الانتصار، على جماعة يستوى عندهم السيد بالمسود وطلب زعماء بيت المقدس المسيحيون أن يحضر الخليفة بنفسه ليوقع وثيقة الأمان ويتسلم بيت المقدس، وحضر عمر، وتلقاه أمراء الأجناد وكان أبو عبيدة مشغولاً ببعض أمور المسلمين فلم يكن بين مستقبلى الخليفة فسأل عمر أمراء الأجناد: أين أخى أبو عبيدة؟

قالوا يأتيك الآن: وبعد قليل حضر أبو عبيدة فعانقه عمر، وذهب عمر مع أبى عبيدة إلى بيته فرآه خالياً من الأثاث والفراش. وليس فيه إلا سيفه وترسه ورحله فقال له عمر: ألا اتخذت بعض الأثاث؟

فأجاب أبو عبيدة: هذا يبلغنى المقيل. وعندما كان أبو عبيدة والياً على الشام فى عهد عمر انتشر بالشام وباء خطير كان يصيب الرجل فيسقط سريعاً وكان أبو عبيدة حبيباً إلى نفس عمر وقد فكر فى أن يجعل له الخلافة من بعده لأنه أمين

الأمة كما قال الرسول ولذلك تمنى عمر أن ينقذ أبى عبيدة من خطر هذا الوباء ولكن عمر كان يعرف حب أبى عبيدة لجنده ولعلمه واستهانته بالموت ولذلك أرسل له خطاب جعل كلماته غير مباشرة لعله يجذب أبا عبيدة للخروج من الشام وكلمات هذا الخطاب هى: أما بعد فإنى قد عرضت لى إليك حاجة أردت أن أشافهك فيها فعزمت عليك إذا نظرت فى كتابى هذا ألا تضعه من يدك حتى تبدأ رحلتك لى ولكن أبا عبيدة بشفافيته أدرك ما أراده عمر وعز عليه أن يخلى جنده فى منطقة الخطر وينجو بنفسه فكتب إلى عمر يقول: إنى قد عرفت حاجتك إلى وإنى فى جند من المسلمين لا أجد بنفسى رغبة عنهم فلست أريد فراقهم حتى يقضى الله فى وفيهم أمره فحللنى من عزمتك يا أمير المؤمنين.

(٩)

عبد الرحمن بن عوف

هو عبد الرحمن بن عوف بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة وأمه الشفاء بنت عوف فاسم أبيها على اسم أبيه وهى أيضاً من بنى زهرة قوم زوجها وكان عبد الرحمن طويلاً حسن الوجه رقيق البشرة أبيض مشرب بحمرة وكان معروفاً برجاحة العقل وكياسة الرأى والكرم والشجاعة.

وقد أسلم عبد الرحمن على يد أبى بكر فى وقت مبكر فكان من السابقين الأولين ويقال إنه كان ثامن رجل دخل الإسلام وكان له ثراء واسع وهو بمكة وقد تعرض بسبب هذاالثراء لعنت قريش ولكن عبد الرحمن لم يحفل بهذا المال ولم يجعل المال يؤثر على عقيدته فهجر ماله وثراءه وهاجر إلى الحبشة فى الهجرة الثانية التى كان فيها عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول ﷺ وفيها كذلك الزبير بن العوام وجعفر بن أبى طالب وامرأته أسماء بنت عميس وعمرو بن سعيد ابن العاص وأخوه خالد بن سعيد ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة عندما انتشر الإسلام بها، لم يشرب الخمر فى الجاهلية: كان عبد الرحمن ضمن القلائل من سادة مكة الذين حرموا الخمر على أنفسهم قبل الإسلام فقد رأى أنها تغطى العقل وتحجبه وكان يرى أن عقله أسمى من أن يدع شراباً يسيطر عليه.

مواقف بطولية: كان عبد الرحمن بن عوف جندياً باسلاً من جنود المسلمين وقد حضر المشاهد كلها مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وكان فيها جميعاً بطلاً فدائياً يعمل لنصرة الإسلام بكل قوة وإيمان وسنذكر فيما يلى لمحات من مواقف عبد الرحمن بن عوف العسكرية: شهد عبد الرحمن بن عوف غزوة بدر وأبلى فيها بلاء حسناً ولكن له فيها موقفاً خاصا يتصل بأبى جهل فإن المسلمين بالمدينة من مهاجرين وأنصار يتحدثون عما أوقعه أبو جهل بالمسلمين قبل الهجرة وكيف أنه قاوم ميلاً إلى الإسلام ظهر فى عمه الوليد بن المغيرة ثم إنه كان من الدعاة للحرب ضد المسلمين بالمدينة وقاوم اتجاهات الصلح التى برزت قبل المعركة، ومن أجل هذا اتجه بعض شباب الأنصار إلى القضاء على أبى جهل فى غزوة بدر واتخذوا من عبد الرحمن وسيلة ليعرفهم بأبى جهل إذ لم يكن معروفاً

عندهم بشخصه ويقول عبد الرحمن بن عوف نظرت يوم بدر فإذا أنا بغلامين من الأنصار هما معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء عن يمينى وشمالى وكل منهما يسأل عن أبى جهل ووسط الصراع الذى كان دائراً استطعت أن أدلهما عليه ورأيت الغلامين وهما ينقضان على أبى جهل كما ينقض الصقر على الحمامة فيضربانه ضربة أسقطته ثم جاء عبدالله بن مسعود فأجهز عليه وصارع عبدالرحمن صراعاً طويلاً فى غزوة أحد وانهالت عليه الضربات دون أن يتراجع ولما انتهت المعركة وجدوا به أكثر من عشرين طعنة وضربة بعضها فى رجله سببت له العرج إلى أن مات. وعين رسول الله صلوات الله وسلامه عليه عبد الرحمن ابن عوف قائداً لسرية تعدادها سبعمائة من المهاجرين والأنصار وكان ذلك سنة ٦هـ وأرسلها إلى دومة الجندل التى تقع فى الشمال الغربى من نجد غير بعيد من بادية الشام وقد نجح عبد الرحمن فى قيادة السرية وتحقق له النصر.

صلى الرسول خلفه

كانت إمامة الصلاة دائماً للرسول صلوات الله وسلامه عليه ولكن يروى أن الرسول ﷺ دخل المسجد وعبد الرحمن بن عوف يؤم بعض المسلمين فى إحدى الصلوات فوقف الرسول يصلى خلفه قال المغيرة بن شعبة: أردت تأخير عبد الرحمن ليكون الرسول إماماً فقال الرسول: دعه وتعتبر صلاة الرسول خلف عبد الرحمن بن عوف دليلاً على مكانته وسمو منزلته.

تعففه عقب الهجرة

عقب الهجرة آخى الرسول ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وبين سعد بن الربعى وكان سعد من أكثر أهل المدينة مالاً فاتجه سعد إلى عبدالرحمن وقال: أنت شريكى فى كل شىء لك شطر مالى ولى زوجتان أحب أن أطلق أحدهما لتتزوجها فقال عبد الرحمن: بارك الله لك فى أهلك ومالك ولكن دلنى على السوق وخرج عبد الرحمن إلى السوق اشترى وباع وربح حتى أصبح من كبار الأغنياء.

يدخلون الجنة حبوا

من الأغنياء من تلهيهم تجارتهم وأموالهم عن التزاماتهم الإسلامية وعن

حقوق الفقراء فى أموالهم وهؤلاء يخسرون بسبب الغنى أكثر مما يربحون فمتعتهم به قصيرة وشقاؤهم بسببه طويل. ولم يكن عبد الرحمن بن عوف من هؤلاء ولكن ماله زاد وزاد وثراءه اتسع وكان يخرج حق الفقير وأكثر منه يروى أن الرسول ﷺ قال له: يا ابن عوف إنك من الأغنياء وإنك ستدخل الجنة حبواً فأقرض الله يطلق لك قدميك. ومنذ ذلك الحين اتجه عبد الرحمن بن عوف إلى الكرم الواسع وتحبب إليه العطاء على أوسع نطاق فيروى أنه مرة تصدق بنصف ماله فنزل فيه قول الله تعالى: **﴿ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لايتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى. لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** (سورة البقرة الآية ٢٦٢) وتوالت مكارم عبدالرحمن عقب ذلك أنه لم يرد أن يدخل الجنة حبوا وإنما كان يطمع أن تحمله قدماه بسرعة إلى أعلى درجات الجنة فيروى أنه كانت له قافلة تجارية عظيمة وافدة من الشام وعندما وصلت هذه القافلة شوارع المدينة أحدثت بها حركة ونشاطا ويروى أن عائشة سألت عن ما يحدث بالمدينة: قيل لها: إنها قافلة لعبد الرحمن بن عوف تحمل تجارته وسألت أم المؤمنين: كيف تحدث قافلة مثل هذا الضجيج فقيل لها: إنها سبعمائة راحلة فقالت أم المؤمنين: سبعمائة راحلة لعبد الرحمن بن عوف الذى قال عنه الرسول إنه سيدخل الجنة حبوا، وبلغت هذه العبارة عبد الرحمن بن عوف فحركت اشجانه فانطلق يقول إنى أشهد الله أن هذه القافلة بأحمالها وأقتابها هدية للمسلمين. وتوالى جود عبد الرحمن بن عوف فيروى أنه قسم كثيرا من أمواله فى بنى زهرة رحمه وكان لا يدع منهم محتاجا إلا قضى حاجته.

وكان يقال إن أهل المدينة عيال على عبد الرحمن، ثلث يقضى دينهم من ماله، وثلث يصلهم وثلث يقرضهم ما يحتاجون.

كرم عبدالرحمن بن عوف

لقد أوردنا صوراً من كرم عبد الرحمن بن عوف ولكن كرمه امتد حتى شمل الأغنياء ويروى ابن عباس أن عبدالرحمن بن عوف مرض مرة فأوصى بثلث ماله وصية تخرج من ثروته عقب وفاته ثم شفى من مرضه، وسرعان ما أخرج الثلث وتصدق به وقال: أقدمه فى حياتى ولا أنتظر أن يقدمه أحد بعد موتى ولم يجعل هذا المال للفقراء فقط بل للأغنياء أيضاً فهو ليس من الزكاة وليس لسد حاجة

محتاج وسار عبد الرحمن فى تقديمه العطاء للأغنياء فقال: يا أصحاب بدر لكل منكم عندى أربعمائة دينار فذهب أصحاب بدر لتسلم هذا العطاء وذهب أيضاً عثمان بن عفان فقيل له: إنك غنى فأجاب: هذه صلة من عبد وليست صدقة. وقد بلغ ما قدمه فى ذلك اليوم مائة وخمسين ألف دينار. ومع هذا العطاء الواسع الذى أقدم عليه عبد الرحمن واتخذه وسيلة لإرضاء الله وإرضاء رسوله والمسلمين، كانت تجارته تنمو، وثراؤه يتزايد، وأرباحه تكثر، حتى روى عنه أنه قال: لقد رأيتنى لو رفعت حجراً لأوشكت أن أجد تحته فضة وذهباً وهكذا حقت كلمة الله ﴿**الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء**﴾. [سورة البقرة الآية ٢٦١] .

شهادة الرسول ﷺ له

جاء فى كتاب (الرياض النضرة) أن الرسول ﷺ أعطى مرة رهطاً فيهم عبدالرحمن بن عوف ولم يعط عبد الرحمن، فتأثر عبدالرحمن لذلك، وخاف أن يكون حرمانه لموجدة من الرسول عليه، فذهب عبدالرحمن إلى عمر يشكو همه، وذهب عمر للرسول يسأله فقال له الرسول: ليس بى سخط عليه ولكنى وكلته إلى إيمانه.

والواضح أن حرص عبد الرحمن على أن يأخذ من الرسول كان مبعثه أن يتيمن بما يأخذه من الرسول وكان بعد ذلك دليل رضا ومصدر بركة ولكن الرسول فى هذه المرة كان يعطى ليتألف قلوباً تحتاج إلى التألف أما عبد الرحمن فكان موثوقاً بإيمانه وإقباله وكان عبدالرحمن صائما فى يوم من الأيام وقبيل موعد الإفطار قدموا له طعاماً شهياً فلما رأى الطعام بكى وانتحب، فقيل له: ما يبكيك؟ فأجاب: مات الرسول ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير، ومات مصعب بن عمير فلم نجد له ثوباً يكفيه كفناً فكنا إذا غطينا رأسه كشفت قدماه وإذا غطينا قدميه كشف رأسه وإنى أخشى أن تكون حسناتنا قد عجلت لنا وما أرانا أخرنا لما هو خير لنا. واتجه عبد الرحمن بن عوف إلى العناية الواسعة بأمهات المؤمنين. حتى لا يمسهن شظف العيش، وحتى لا يلحقهن أى أذى أو سوء، ويروى أنه باع مرة أرضاً بأربعين ألف دينار وأخذ يوزعها على فقراء المسلمين وأرسل مبالغ كثيرة إلى كل واحدة من زوجات الرسول فسألت عائشة: من أرسل هذا؟ فقالوا: عبد

الرحمن بن عوف. فقالت عائشة: إن الرسول ﷺ قال: لا يحنوا عليكن بعدى إلا الأبرار ثم دعت عائشة له وقالت: سقى الله ابن عوف من سلسبيل الجنة. وقالت أم سلمة عندما تلقت هدية عبد الرحمن: سمعت رسول الله ﷺ يقول لى ولمعشر زوجاته: إن الذى يحافظ عليكن بعدى لهو الصادق البار. وأصبح معروفاً أن عبد الرحمن بن عوف يعد نفسه راعياً وخادماً لزوجات الرسول ولذلك فعندما عزمن على الحج إلى مكة فى عهد عمر بن الخطاب بعث عمر معهن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف فكان عثمان يسير من خلفهن فلا يدع أحداً يلحق بهن.

دفن عبد الرحمن

وتقديراً من عائشة لخدمات عبد الرحمن ورعايته لها ولزوجات الرسول، عرضت عليه فى مرض وفاته أن يدفن فى حجرتها مع الرسول وصاحبيه ولكنه فى أدبه الجم رأى أن هذا المقام أعلى من أن يطمع فيه. فشكرها واستعفاها وقال لها إنه على موعد مع عثمان بن مظعون فأيهما مات بعد الآخر يدفن بجوار السابق وكان عثمان بن مظعون قد مات سنة ٢هـ وكان أول المهاجرين وفاة بالمدينة وأول المسلمين الذين دفنوا بالبقيع وكان عبد الرحمن حريصاً على أن يدفن بجوار صاحبه وقد تحقق له ذلك.

وبمناسبة الصلة الوثيقة التى قامت بين عبد الرحمن وبين ابن مظعون نحب أن نوضح نقطة مهمة هنا، هى أن المال لم تكن تقاس به أقدار الناس، فعبد الرحمن ابن عوف كان ذا ثراء واسع فى مكة وفى المدينة أما عثمان بن مظعون فكان زاهدا فى المال لا يسعى له ولا يتقبله ومع هذا جمع الحب فى الله بين هذين القلبين المتفاوتين أو المتباعدين فى الغنى واليسار، لقد تناسى الغنى ثراءه ولم يلتفت الزاهد لمتاع الدنيا ومن هنا وجد بين الاثنين من وسائل الصلة بالله والحب لرسوله وللمؤمنين ما يربط قلبيهما وما يخلق وثاقاً ووعداً أن يضمهما قبر واحد إذا انفلتا من هذه الحياة. ومما يذكر عن عثمان بن مظعون أنه كان من الذين حرموا الخمر على أنفسهم فى الجاهلية وكان يقول: لا أشرب شراباً يذهب عقلى ويضحك بى من هو أدنى منى.

يبدو من دراسة حياة عبد الرحمن بن عوف أن ماله الكثير لم يجذبه إلى المتع والملاذ وقد رأيناه مرة يبكى عندما يقدم له طعام شهى ونحب هنا أن نضيف صورة

أخرى لهذا الغنى الذى استخدم المال ولم يستخدمه المال. فيروى أنه كان يلبس ملابس قريبة الشبه من ملابس خدمه حتى أنه كان لا يعرف بسهولة إذا كان بينهم وكان عبد الرحمن يأكل مع ضيوفه الفقراء من قصعة واحدة.

فى عهد عمر

عندما تولى عمر الخلافة اختار عبد الرحمن فى العام الأول من خلافته ليكون أمير الحج ولاشك أن هذه ثقة جديرة بالتقدير. وعندما تأزمت الأمور بين المسلمين وبين بلاد فارس وأصبح من الضرورى أن يخوض المسلمون حرباً ضد الفرس اتجه عمر إلى أن يقود الجيش بنفسه إلى الميدان. وبدأ فعلاً هذه الرحلة بعد أن استخلف على المدينة على بن أبى طالب. ولكن الصحابة لم يروا أن يتولى عمر قيادة الجيش وكان عبد الرحمن بن عوف أسبقهم ليعلن أن قيادة أمير المؤمنين للجيش مخاطرة لا ينبغى أن تتم فتوقف الجيش الزاحف واستدعى عمر علياً من المدينة ودار نقاش طويل كان على وعبد الرحمن من ألمع المتحدثين فيه وقد انتهى هذا النقاش باختيار سعد بن أبى وقاص لهذه المهمة.

الخليفة بعد عمر

عند حديثنا عن عمر فى مقال سابق ذكرنا أن عمر رضى الله عنه كان متردداً فى مسألة تولية العهد. فهو لم يرد أن يتحمل المسؤولية حياً وميتاً كما قال ومن هنا اتجه لعدم التعيين وهو كذلك لم يرد أن يترك المسلمين عرضة للخلاف والنزاع ففكر فى التعيين وقد عبر عن تردده بقوله: إن أستخلف فقد أستخلف من هو خير منى وإن أترك فقد ترك من هو خير منى. وأخيراً اتجه إلى حل وسط، فقد رأى أن يعين الستة الباقين من العشرة المبشرين بالجنة ليختاروا واحدا منهم ومعروف أن هؤلاء الستة هم: على وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن ابن عوف(معروف أن سعيد بن زيد كان لا يقبل الإمارة ولا الاشتراك فى شؤونها) وسرعان ما اتخذ عبد الرحمن الزمام فقد اقترح أن يخرج واحد من الستة نفسه بحيث لا يختار خليفة، على أن يوكل له الاتصال بالباقى والاتصال بأهل بدر وبالجماهير لاختيار من تكون الأغلبية معه، فوافقوا على المبدأ ثم ذكر لهم استعداده ليكون ذلك الشخص فقبلوا وقال له على: إنى أقبل ذلك فقد سمعت الرسول يقول عنك: إنك يا ابن عوف أمين فى أهل السماء، أمين فى أهل الأرض.

وعاهد الجميع على ذلك وعاهدهم على الحق والعدل. . وتم اختيار عثمان كما ذكرنا فى موضع آخر.

فقه عبد الرحمن

ذكرنا من قبل أن أبا سلمة بن عبد الرحمن كان فقيهاً وقد تلقى الرجل الفقه عن أبيه وعن جمع من الصحابة فقد كان عبد الرحمن بن عوف متفقهاً فى الدين بصيراً بالكتاب والسنة وكان يقوم بالفتيا حتى فى عهد الرسول فكان يفتى بما تلقاه من فتاوى الرسول وفى عهد عمر أخذ الخليفة برأيه فى أخذ الجزية من المجوس أسوة بأهل الكتاب.

وتوفى عبد الرحمن بن عوف سنة ٣١ هجرية وكانت سنه حوالى خمس وسبعين سنة وقال على عند وفاته: اذهب يا ابن عوف فقد أدركت صفوها وسبقت كدرها (كانت الفتنة فى أخريات عهد عثمان قد بدأت تظهر).

«١٠»

سعيـــد بن زيد

هو آخر العشرة المبشرين بالجنة والحديث عنه سيمتد لنتحدث عن أعراقه وجذوره الذين كان التدين واضحاً فيهم. هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل من بنى عدى وهو ابن عم عمر بن الخطاب وزوج أخته فاطمة بنت الخطاب وقد تزوج عمر أخت سعيد واسمها عاتكة وسنتحدث عنها فيما بعد. والحديث عن سعيد بن زيد بن عمرو يستلزم أن نتحدث عن أبيه زيد بن عمرو فهو من الذين عارضوا عبادة الأصنام قبل الإسلام وقد كان لهذا الاتجاه فى زيد تأثيره على ابنه سعيد فيما بعد وكان مع زيد آخرون ممن سموا «الحنفاء» وهم الذين عارضوا عبادة الأصنام وعن هؤلاء الحنفاء نتحدث حديثاً قصيراً فقد غلبت عبادة الأحجار على العرب كما هو معروف وخضعوا لها ونسوا بها ولكن بين هذا الظلام كان هناك من يدرك أن القوم فى ظلال فقد روى أنه اجتمع ـ فى أحد الاحتفالات التى كان يقيمها العرب لأصنامهم ـ أربعة من العرب هم: ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش وزيد بن عمرو وقال هؤلاء بعضهم لبعض: والله ليس قومنا على شىء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ما حجر نطوف به لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع؟ التمسوا لأنفسكم دينا غير هذا الدين وقد أخذ هؤلاء يفكرون فاهتدى ورقة وعثمان للنصرانية والتبس الأمر على عبيد الله فبقى على حاله من الالتباس حتى ظهر الإسلام فأسلم ثم هاجر للحبشة وهناك تنصر.

وأما زيد فلم يدخل النصرانية لأنه لم يقبل القول بالتثليث وقال: لا أخرج من تعدد آلهة إلى تعدد آلهة ولكنه أبعد عبادة الأصنام عن نفسه وأنكر ما رآه على العرب من أكل الميتة والدم وغيرها. واعتقد بذلك أنه عاد إلى دين إبراهيم ولذلك كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول يا معشر قريش والذى نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى وكان يناجى ربه قائلاً: يا رب لو أنى أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكنى لا أعلم وهو الذى يقول: تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الرجل الخبير فلا العزى أدين ولا ابنتيها. ولا صنمى بنى غنم أزور ولا هبلا أجل وكان رباً. لنا فى الدهر إذ حلمى صغير ومن الحنفاء

ايضاً أمية بن أبى الصلت وقس بن مساعدة الأيادى وكان زيد يعيب على قريش أنها تذبح الذبائح على غير إسم الله ويقول الشاة خلقها الله، وأنزل من السماء ماء أنبت به مراعى للأنعام ثم تذبحونها على غير اسم الله والله لا آكل مما لا يذكر اسم الله عليه.

باحث عن دين الحق

ويروى أن زيد بن عمرو طاف أنحاء الجزيرة العربية وزار الشام والعراق باحثاً عن دين يخلو من الأساطير وعبادة الماديات وقد التقى براهب فى «الموصل» فذكر له الراهب أن المبعوث الذى سيجدد دين إبراهيم ويأتى بخاتم الرسالات أوشك أن يظهر وأن النصوص تدل على أن ظهوره سيكون بأرض الحجاز ففرح زيد بهذا الخبر وأسرع فى العودة إلى مكة ولكنه مات فى الطريق قبل الإسلام بعدة سنوات. ويروى عامر بن ربيعة أنه لقى زيد بن عمرو وهو خارج من مكة يريد حراء، فقال: يا عامر إن نبياً آن له أن يبعث فى هذه البقاع وما أرانى أدركت فإن طالت بك مدة فاتبعه وأقرئه منى السلام. ويضيف عامر قوله: ولما بعث محمد صلوات الله عليه واعتنقت الدين الذى جاء به بلغته سلام زيد بن عمرو فرد الرسول عليه السلام وترحم عليه ويقول سعيد بن زيد: جئت الرسول فقلت له: إن زيد أبى كان كما سمعت فاستغفر له. فاستغفر الرسول له وقال: إنه يبعث يوم القيامة أمة وحده.

آية نزلت فى زيد

وكان سعيد بن زيد يروى أن قوله تعالى: ﴿**والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى**﴾ (سورة الزمر الآية:١٧) قد نزلت فى ثلاثة نفر كانوا فى الجاهلية يوحدون الله عز وجل، هم زيد بن عمرو وأبو ذر الغفارى وسلمان الفارسى.

يحارب وأد البنات

وكان زيد بن عمرو يحارب وأد البنات ولذلك وصف فى كتب التراث بأنه يحيى الموؤدة وكانت وسيلته لذلك أن يسعى للرجل الذى يتجه لوأد ابنته فيقول له أنا أتبناها وأكفيك مؤونتها ويأخذها منه ويقوم بتربيتها فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت أخذتها وإن شئت تركتها لى أحمل عبئها وأرعاها. ولهذا فليس عجيباً

أن ينجب زيد بن عمرو ابناً يصبح من العشرة المبشرين بالجنة ومن الذين منحوا الإسلام كل قواهم وأخلصوا له كل الإخلاص وسنعيش مع سعيد بن زيد فى الصفحات التالية: كان سعيد رضى الله عنه رجلاً طويلاً يميل وجهه إلى السمرة، وحسن الخلق، هادئ الطبع، تقياً ورعاً. يتجه إلى الزهد والتواضع وكان عميقاً فى تدينه.

إسلام سعيد

من الطبيعى بعد أن تعرفنا على زيد بن عمرو أن يكون إسلام ابنه سعيد سريعاً وعميقاً وقد دخل سعيد الإسلام مع السابقين الأولين ودخلت معه زوجته فاطمة بنت الخطاب وأسرا إسلامهما خوفاً من عمر بن الخطاب الذى تأخر إسلامه حتى العام الخامس للبعثة والذى كان معروفاً بالشدة والعنف وقد ذكرنا فى مقال سابق أنه اقتحم بيت أخته فاطمة عندما عرف أنها دخلت وزوجها سعيد بن زيد الإسلام وأنه لطمها فصرخت فيه أخته: إنه ليس من حقك أن تلطمنا.. وانتهى الحوار إلى أن أعلن عمر إسلامه فى بيت سعيد بن زيد وهكذا قدم بيت سعيد بن زيد للإسلام شخصية فذة. لا تزال موضع فخر للإسلام والمسلمين تلك هى شخصية عمر بن الخطاب.

وقت غزوة بدر

لم يحضر سعيد بن زيد غزوة بدر فقد كان الرسول ﷺ قد أرسله هو وطلحة ابن عبيد الله ليتعرفا على أخبار قافلة قريش التجارية التى كان يقودها أبو سفيان وقد ذهبا يستطلعان أخبار قافلة ولما عادا إلى المدينة ليخبرا الرسول بما علما كان الرسول قد خرج هو وأصحابه لملاقاة قريش فاتجها ليلحقا بالرسول وصحبه فلقياه منصرفاً من بدر وعلى هذا فلم يشهدا الغزوة ولكن الرسول فرض لهما واعتبرهما من أهل بدر إذ كانا يقومان بعمل كلفا به من الرسول لصالح المسلمين.

فى المشاهد كلها

إذا كان سعيد بن زيد قد فاته شرف الجهاد فى بدر فإنه قد حرص على ألا يفوته حضور الغزوات بعد ذلك ولهذا يسجل التاريخ أن سعيد بن زيد حضر المشاهد كلها وكانت حياة الجهاد أحب حياة له.

فى عهد الفتوحات اشترك سعيد فى موقعة اليرموك فى فتح دمشق وأبلى بلاء حسناً فى سبيل الله وقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة بالشام يسأله عن المسلمين وعن أحوال سعيد ومعاذ بن جبل فرد أبو عبيدة قائلاً: أما عن أخويك سعيد بن زيد ومعاذ بن جبل فكما عهدت إلا أنهما زادا فى الدنيا زهداً وفى الآخرة رغبة وبعد فتح دمشق عين أبو عبيدة سعيد بن زيد والياً عليها وخرج هو لمواصلة الجهاد ضد الروم فكتب إليه سعيد يقول: سلام عليك، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو أما بعد فإنى ما كنت لأوثرك وأصحابك على نفسى وعلى ما يدنينى من مرضاة ربى فإذا أتاك كتابى هذا فابعث إلى عملك من هو أرغب منى فيه فإنى قادم عليك وشيكاً إن شاء الله تعالى. فلما تلقى أبو عبيدة الكتاب استجاب لرغبته وعين يزيد بن أبى سفيان والياً عن دمشق ولحق سعيد بجموع المجاهدين وهكذا نجد سعيد بن زيد الذى كان الإيثار من أبرز صفاته يقرر أنه فى موضوع الجهاد لا يؤثر أحداً على نفسه وأنه يفضل أن يخوض غمار الحرب فى سبيل الله على نعيم الولاية والمتعة فيها. وعندما توفى عمر بن الخطاب بكى عليه سعيد بن زيد فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ليس الذى يبكينى موت فرد، ولكنى أخاف أن يضعف الإسلام وإن موت عمر ثلمة يصعب أن ترتق.

مكانة سعيد

فى أخريات عهد معاوية بن أبى سفيان كتب معاوية لمروان بن الحكم وإلى المدينة المنورة ليأخذ البيعة من أهل المدينة لابنه يزيد، وتراخى مروان فى تنفيذ رغبة الخليفة، فسأله رجل من أهل الشام عن سبب تراخيه فقال: حتى يجيء سعيد بن زيد فيبايع، فإنه سيد أهل البلد، وإذا بايع بايع الناس. فقال الرجل الشامى: أنا آتيك به، فوافق مروان. وذهب الرجل الشامى إلى سعيد وطلب منه الذهاب للأمير ليبايع لولى العهد، فقال سعيد: تدعونى لأبايع لقوم قاتلتهم على الإسلام؟ فرجع الرجل إلى مروان وأخبره بذلك وطلب الإذن فى استعمال القوة مع سعيد.

وسرعان ما جاء رسول من إحدى أمهات المؤمنين وكانت مريضة مرض الموت وكان هذا الرسول يحمل وصية للوالى بأن يصلى عليها سعيد بن زيد صلاة الجنازة.

وعلق مروان على هذه الوصية بقوله للرجل الشامى: هذا هو الرجل الذى كنت تهدده بضرب عنقه لو لم يبايع ليزيد بن معاوية. لو أسأنا له لهاجت المدينة كلها علينا.

مجاب الدعوة

رأت سيدة اسمها «أروى بنت أويس» ما بين سعيد بن زيد ومروان بن الحكم من نفور فانتهزت هذه الفرصة وادعت أن سعيداً أخذ منها أرضاً بغير حق فلم يجد سعيد إلا الله لينصفه، فلجأ إليه يطلب البراءة لنفسه ودعا عليها ألا ترى هذه الأرض إن كانت كاذبة. وسرعان ما كف بصرها. فكان أهل المدينة يتخذون ذلك مثلاً إذ يدعو بعضهم على بعض بقوله: أعماه الذى أعمى أروى. وكانت أروى تقول: أصابتنى دعوة سعيد.

تم بحمد الله وتوفيقه

فهرس المراجع

١ - الطبقات الكبرى — لابن سعد

٢ - السيرة الحلبية — لابن كثير

٣ - السيرة — لابن هشام

٤ - وفيات الأعيان — لابن خلكان

٥ - دلائل النبوة — للبيهقى

٦ - حياة الصحابة — محمد يوسف الكاندهلوى

٧ - البداية والنهاية — لابن كثير

٨ - رجال حول الرسول — «خالد محمد خالد»

٩ - فقه السيرة — «الشيخ محمد الغزالى»

١٠- كتاب المعارك — للبلاذرى

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيدع بدار الكتب المصرية ٤١٣٨ / ١٩٩٥م

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطي شبرا القاهرة
الرقم البريدى ـــ ١١٢٣١